المكتبة الهيجلية

هيجل

حياة يسوع

ترجمة
جرجي يعقوب



حياة يسوع

يمثل كتاب « حياة يسوع » مرحلة من الطريق التي اجتازها فكر هيجل بين عام ١٧٩٠ و١٨٠٠ . فقد كتبه في العام ١٧٩٥ ، فكانت صياغته واقعة تحت التأثير المباشر لكتاب كانط عن الدين .

اهتمامات هيجل هنا خلقية وليست تاريخية . والمهمة التي انتدب نفسه لها سبق أن حددها كانط بقوله إنه يمكن اجراء التجربة التالية : لنتفحص الوحي ، بما هو مذهب تاريخي ، بطريقة مجزأة ، فلا نتناول منه سوى المفاهيم الخلقية ، ولنر إذا كان سيقودنا ، بهذه الطريقة ، إلى مذهب عقلي خالص للدين .

في « حياة يسوع » يسعى هيجل إلى أن يظهر ، بمثل عيني ، الصراع بين دين خالص ، هو مذهب يسوع ، وبين دين وضعي متحجر في شكلية صارمة ، دين خارجي تماماً ، هو الدين اليهودي ، وإلى أن يؤكد السيادة الخلقية للشخص بالنسبة إلى كل ناموس يريد أن يفرض نفسه عليه من الخارج . وهذه هي مهمة هيجل في كتابه .

دار التنوير للطباعة والنشر ص ب ٦٤٩٩ - ١١٣ بيروت - لبنان



مدخل

١ ـ « دفاتر الشباب » لهيجل .

ـ أ ـ

في كـانون الثـاني من العام ١٧٩٥ كتب هيجـل الشاب ، ابّان تعليمه احدى العائلات في مدينة برن ، إلى شيلينج ، صديقه المفضل آنـذاك : « إن ابتعـادي عن كثير من الكتب والـوقت الضيق المتاح لي ، لا يسمحـان بـانهاء الأفكار العديدة التي احملها في ذاتي . . . » ويرسل لـه شيلينج ، ذو العبقـرية المبكرة ، بعد بضعة اشهر الكتاب الذي كـان منصرفـاً إلى تأليفـه : « في الأنا كمبدأ للفلسفة » . فيشكره هيجل على كتابه ويخاطبـه بحماسـة قائـلاً له فيـما قال : « لقد أرسلت كلمتك في الزمن اللامتناهي ، بصمت . . . » .

وفي الرسالة نفسها المؤرخة في ٣٠ آب من العام ١٧٩٥ نسمعـه يشكو مجدداً من كتاباته التي يبدو أنها لا تتقدم مطلقاً : « أمّا كتاباتي فإنها لا تسـاوي تعب الحديث عنها . . . »[1] . ولكنه لا يصرف النـظر عن فكرة انجـازها ، ويـأمل أن يستـطيع يـوماً اخضـاعها لنقـد شيلينـج « السمـح » . فقـد لعب شيلينج ، وهو اصغـر من هيجل ببضـع سنوات ، دور الأخ الأكبـر ، أو قلْ دور المعلم ، بـالنسبة إلى هيجـل ذي العبقريـة المتأخـرة . ولكن وعـده يبقى وعداً ، فلا يخضـع اعمالـه لنقد صـديقه ، رغم متـابعته لهـا بسعي حثيث .

---

(١) هيجـل ، الأعـمـال . HEGEL, Werke, Berlin, 1832 - 1887, T.XIX, V.I, 12,23.

وذلك لسبب بسيط ، فإن تلك الأعمال لم تنجز على الاطلاق .

ومثلها كان مصير الملاحظات التي سجلها هيجل على الورق ابّان ممارسته التعليم في فرانكفورت على نهر الماين .

ولم يفكر هيجل الفيلسوف بعد ذلك في انجاز أعمال هيجل اللاهوتي ، حتى في شكلها الأولي ، ذلك أننا في صدد مؤلفات تستحق عموماً أن تُسمى لاهوتية . أما أفكار اللاهوتي - الفيلسوف الشاب التي كان « يحملها » في ذاته ، فقد مرت فيا بعد في مذهب المثالية المطلقة ، ولكن بعد اخفاء أصلها الديني ، إذا جاز التعبير . إن بعض هذه الأفكار قد رأى النور بالشكل الأصلي في المقتطفات التي نشرها ك . روزنكرانتس و ر . هايم[2] ، ولكن تلك المقتطفات لا تمثل سوى جزء زهيد من المخطوطات المحفوظة في مكتبة برلين[3] .

ثمة استمرارية حقيقية بين الأفكار التي عالجها هيجل في أعماله اللاهوتية وبين أفكاره اللاحقة ، وهو ما أظهره هايم بوضوح في دراسته عن هيجل ولكن ، رغم دراسة هايم ، فإن الاهمال الذي لحق بالميتافيزيقا الهيجلية ، في أواسط القرن الماضي ، أدّى إلى عدم الاهتمام بكتابات الفيلسوف في شبابه ، رغم الأهمية الكبيرة التي قدمتها تلك الكتابات في مجال الاحاطة بالمذهب الهيجلي .

ولهذا السبب فإن كتابات هيجل بين العامين ١٧٩٠ و ١٨٠٠ لم تجد مَنْ ينشرها قبل مطلع القرن الحالي ، باستثناء المقتطفات اللاهوتية والسياسية التي نشرها روزنكرانتس وهايم ، وقسم من الكتابات السياسية نشره موللا .

---

(٢) روزنكرانتس ، حياة هيجل . K. ROZENKRANZ , G. W. Fr. Hegels Leben, Berlin, 1844.

هايم ، هيجل وزمانه . R. HAYM, Hegel und seine zeit, Berlin, 1857.

(٣) المعروفة سابقاً باسم « مكتبة بروسيا الملكية » .

ويعود الفضل إلى ديلتاي ، مؤرخ المثالية الالمانية الكبير ، الذي لفت انتباه العالم الفلسفي مجدداً إلى الكتابات اللاهوتية لهيجل الشاب[4] ، بدراسته العميقة لشباب هيجل ، تلك الدراسة التي لم تنجز للأسف . كما أن السيد بول روك ، كان أول من نشر جزءاً من هذه الأعمال في العام ١٩٠٦ تحت عنوان « حياة يسوع » . أما طبعة السيد هرمان نول ، تلميذ ديلتاي ، فظهرت بعد ذلك ببضعة أسابيع ، وكانت شبه كاملة ، وحملت العنوان الأصح : « كتابات لاهوتية لهيجل الشاب » . فإذا استثنينا بعض العظات التي القاها هيجل في مدينة توبنجن ، وأربع بطاقات ، فإن طبعة السيد نول حوت كل الأعمال اللاهوتية لهيجل : « الديانة الشعبية والمسيحية » (شذرات) ؛ « حياة يسوع » ؛ « نقد المسيحية الوضعية » ؛ « روح المسيحية ومصيرها » ؛ وعدة « مخططات » لأعمال وشذرات[5] .

---

(٤) نشرت دراسة ديلتاي أولاً في « حوليات اكاديمية برلين » (W. DILTHEY, Die Jugendgeschichte, Hegels, Abrandlungen der preussichen Akademie der wissenschaften, 1905, Berlin.) ثم نشر السيد هرمان نول عمل معلمه في كتاب مستقل سنة ١٩٢١ ، وأضاف إليه الجزء الذي لم ينجزه ديلتاي .

(٥) تحتوي طبعة روك : « حياة يسوع » ؛ الفقرات التي تحمل في طبعة نول عنوان « روح المسيحية ومصيرها » ؛ وجزءاً مما طبعته منشورات نول في ملحق بعنوان « مشاريع » .

فعندما كان السيد بول روك ينسخ المخطوطات اللاهوتية لهيجل ، كانت مجموعة في ثلاثة مجلدات تحمل الأرقام : ٧ ، ٨ و ١١ . وقد نشرت دار روك المجلد رقم ٧ (« حياة يسوع ») ؛ وفقرات المجلد رقم ١١ التي ترتبط « من دون شك » بـ « حياة يسوع » ، كما ذكر السيد روك نفسه .

وقد نشرت هذه الفقرات حسب الترتيب الموضوع لها في المجلد رقم ١١ . ولهذا فإن طبعة روك لا تحتوي على الفقرات الموجودة في المجلد رقم ٨ والتي « ترتبط » بكتاب « حياة يسوع » .

ميزة طبعة نول أنها كاملة ، وأنها تتبع تصميماً مختلفاً . فهي لم تنشر المخطوطات كما تم جمعها بمحض الصدفة في مكتبة برلين . لأن نول تابع عن كثب دراسة ديلتاي ، فاضطر إلى نشر المخطوطات بحسب ترتيبها الزمني ، فأصبح بالامكان تتبع النمو الروحي لهيجل الشاب .

وهكذا فإن « روح المسيحية ومصيرها » الذي نشرته دار روك على أنه « شذرات » =

كان تأثير تلك المنشورات كبيراً ، من وجهة نظر هيجل - الانسان ، ووجهة نظر هيجل - الفيلسوف .

فقد كان الميل كبيراً قبل ذلك إلى أن يرى في هيجل - الانسان تجسيماً متكلفاً لمذهب برلين ، أو نسيان هيجل - الانسان تماماً . وكان يُظن أن

= مرتبطة « بحباة يسوع » ، جاء بعد « نقد المسيحية الوضعية » في طبعة نول . وهذا الأخير برتبط بدقة « بحياة يسوع » ، وقد كتب بعده مباشرة (قبل ٢ تشرين الثاني ١٧٩٥ ، انظر نول صفحة ١٣٩) ، وفيه استعمل هيجل بعض الفقرات التي سبق ذكرها في « حياة يسوع » . أما « روح المسيحية ومصيرها » فقد كتب في خريف أو شتاء ١٧٩٨ (انظر نول ص ٤٠٥) أي في الفترة التي غيّر فبها هيجل وجهة نظره . ولهذا السبب فإن عنوان « حياة يسوع » الذي جمعت فيه طبعة روك « حياة يسوع » الصحيح ، المخطوط في العام ١٧٩٥ ، إلى جانب « روح المسيحية ومصيرها » ، يبدو لي غير مبرّر .

ومن جهة أخرى فإن طبعة نول نجحت في اعادة بناء عمل هام لهيجل ، وربما أكثر كتابات الشباب أهمية . وهو بالتحديد « روح المسبحية ومصبرها » (هنا تبلغ احدى مراحل نمو فكر هيجل أوجها) . وعلى هذا النحو ، فإن المادة التي فدمتها طبعة روك بشكل ففرات ، تحمل كلها سمة روح واحدة ونعالج المشكلة نفسها ، إلاّ أنها غير متماسكة فيما بينها . أما في طبعة نول فإن نلك المادة تأخذ الشكل الموحد لعمل منظم . وحتى نصل دار نول إلى تلك النتيجة ، فصلت بعض الأجزاء ونشرتها في ملحق على أنها « مشاريع » ؛ (الصفحات العشر الأولى من « فقرات » طبعة روك ، والصفحات ١٠١ - ١٠٦ ، ١٦٤ - ١٦٩ ، ١٧٧ - ٢٠١) . أما باقي النص فقد تم توزيعه بشكل مختلف عن طبعة روك .

وبناء على طلب السيد نول ، اعادت مكتبة برلين جمع المخطوطات اللاهوتية لهيجل بحسب الترتيب المتبع في طبعة نول (ملاحظة دوّنها السيد نول نفسه في الصفحة ٥٧٦ من كتاب ديلتاي Die Jugendgeschichte Hegels - شباب هيجل - المطبوع سنة ١٩٢١) .

يضاف إلى كل ذلك أن طبعة نول احتوت أيضاً على الأعمال السياسية التي كتبها هيجل بين سنتي ١٧٩٠ - ١٨٠٠ ، والتي لم تكن قد نشرت قبلاً .

بالامكان فهم أفكار هيجل - الفيلسوف دون أخذ الحياة الروحية الحميمة لهيجل - الانسان بعين الاعتبار .

والحال ، أن كتابات الشباب هذه تبرز هيجلاً تزخر فيه حياة داخلية غاية في الغنى . ويتملكه شعور قوي بتماثل كلي جذري لسائر أشكال الوجود ، وشعور بوحدة الحياة ، الحياة الكلية في الكون ، ويقض مضجعه قلق ديني ازاء سائر التناقضات التي خلقتها الحياة والعقل في مجرى الكائن الواحد الحيّ ، وتملأ نفسه رغبة حارة في مصالحة سائر التناقضات ، ويلازمه الحنين الصوفي إلى الوحدة الكاملة مع الكل .

ومعلوم أن العنصر العقلي ، القوي ، قد جاء وكأنه طعم للعنصر الانفعالي الصوفي . ويمكن القول إن مذهب هيجل اللاحق ليس سوى التعبير العقلاني ، وبشكل ما اللاشخصي ، عن الحياة الصوفية التي عاشها هيجل الشاب ، تلك الحياة الشخصية إلى أبعد الحدود . وسنلاحظ فيما بعد أن المذهب المبني بواسطة المنهج الجدلي هو الراسب العقلي للتجربة الدينية التي عاشها هيجل بين عامي ١٧٩٠ - ١٨٠٠ .

كانت الرغبة في الاتحاد الكامل بالكل من الحرارة بحيث أن هيجل كاد ، لفترة ما ، في احدى منعطفات مسيرته ، يلتزم نهائياً الطريق التي رسمها له المعلم ايكارت ويعقوب بوهمه . وعلى هذا النحو فإنه كان سيمسي تلميذاً عبقرياً لكبار الصوفيين الالمان ومتمماً لهم . ولكن عقلانيته وولعه بالتاريخ واهتمامه الحاد بتفاصيل الأشياء قاومت ، فسار فكره في طريق أخرى .

يرى السيد اميل براهييه أن « قلق » النفس التي تحس أنها غريبة بازاء الموضوعات الخارجية ، ذلك « القلق » الذي تحدث عنه هيجل في كتابه فينومينولوجيا الروح ، هو « الحافز الخفي » لفكر هيجل[٦] . ولا بد أن يشعر

(٦) تاريخ الفلسفة الالمانية (أ . برهييه) ، باريس ١٩٢١ ، ص ١٢٠ .

كل مَنْ يقرأ مؤلفات هيجل بأن هذا التوتر الروحي أكبر وأشد حساسية في كتاباته اللاهوتية .

وهكذا فإن نشر تلك الكتابات الحميمة ، الأمر الذي يرجح أن هيجل كان يعتبره عملاً رجساً ، يكشف لنا هيجلاً غاية في الانسانية ، فيبدو اقرب إلى القلب من الأستاذ البرليني ، الذي سيكونه فيما بعد .

ولكن رغم ذلك ، فإذا كان بالامكان اعتبار نشر تلك الأعمال تفريطاً بالأمانة نحو هيجل ـ الانسان ، فإنها ليست كذلك نحو هيجل ـ الفيلسوف . لأن كتابات الشباب هذه توصلنا إلى فهم أفضل للفلسفة الهيجلية . فإننا نلتقط منها في الواقع ولادة عدد من الأفكار التي ستمر بعد ذلك في مذهب هيجل . ويمكن القول هنا ، مع السيد براهييه ، أن هيجل لم يفعل شيئاً آخر سوى اعطاء تلك الأفكار شكلاً أكثر عقلانية(٧) .

ولكن يمكن القول في الوقت نفسه ، أنه بفضل اكتشاف هذا الهيجل ، الأكثر انسانية والأقل تجريداً ، تتلون المعاني الهيجلية ، المنفرة للوهلة الأولى والقاسية ظاهرياً ، ببعض الانفعالية وتمتلىء بالعاطفة . وإذا كانت معانيها العقلانية لا تتغير أبداً ، فإنها تأخذ إلى حد ما بعض الصلابة . وهذا الأمر هام جداً من أجل فهم فلسفة تحمّلت تفسيرات متنوعة جداً ومختلفة جداً ، وحتى متناقضة .

- ج -

ربما كان مفيداً أن نتذكر هنا أن هيجل أراد أن يكون قساً ، تابعاً بذلك نذر أهله ومدفوعاً ، على الأرجح ، بميله إلى النشاط العملي . وقد انتهت دراساته اللاهوتية في جامعة توبنجن سنة ١٧٩٣ ، ولكن اهتمامه بقي محصوراً بالمسائل اللاهوتية حتى سنة ١٨٠٠ ، بسبب « الميل اليها » على حد تعبيره ، وبسبب علاقتها الحميمة « بالأدب الكلاسيكي والفلسفة »(٩) . والأعمال التي نشرها السيدان روك ونول هي خلاصة هذه الاهتمامات .

(٧) نفسه ص ١١٩ .

(٨) اطلق عليها هـ . تين اسم « تجريدات مرعبة » (Philosophie Classique p. 143, 12e édition)

إلا أنه من غير الممكن وصف تلك الأعمال باللاهوتية إلاّ بالمعنى الواسع جداً لهذه الكلمة ، لأنه حتى هنا ، أي حيث يحتك هيجل بمشاكل اللاهوت ، فإنه لا ينظر إليها بصفته لاهوتياً . وإذا كان موضوع البحث لاهوتياً تماماً في بعض الأحيان ، فإن الفكر المركز عليه ليس فكراً لاهوتياً . وبشكل عام ، فإن ما يستولي على فكر هيجل الشاب ليس المشكلات اللاهوتية بحد ذاتها ، ولا مسائل العقيدة ـ المسيحية أو غير المسيحية ـ بل إن الفيلسوف والمؤرخ هو الذي يخوض في مسائل الفلسفة العملية وعلم الاجتماع والتاريخ والسياسة ، بوجهة نظره الخاصة ومع حرية فكرية منفلتة من أي قيد عقائدي . وبهذا التحديد فإن هيجل يجب ألا يُعَدّ لاهوتياً أكثر من نيتشه مثلاً .

كان هدفه ذا طبيعة عملية تماماً . فهيجل الشاب ، كما هيجل في كل مراحله ، يريد أن يكون مصلحاً . ويفكر في تأسيس ديانة شعبية تقوم مقام المسيحية الوضعية التي يعتقد أنها دين سلطة وعقيدة ، وأنها يجب أن تعود إلى مبدأها الأصلي ، أي المبدأ الخلقي . كان يحلم بدين يرضي متطلبات العقل والعاطفة في آن معاً ، دين خالق لحضارة أكثر تناغماً وأكثر غنىً .

ولكن حتى يكون البناء ممكناً يجب تمهيد الأرض أولاً . لذلك كان على هيجل أن يشرع بالضرورة في تفحص المسيحية ونقدها . ولكن هذا الأسلوب جعل المشكلة التي كانت عملية تماماً في البداية تتغير شيئاً فشيئاً ، ثم تتسع ، حتى صارت مسألة تاريخية . إنها فرادة فكر هيجل الشاب في نقل المشاكل الميتافيزيقية بالنسبة إلى كانط وشيلينج ، إلى أرض تاريخية تماماً . ولكن المسألة التاريخية تحولت بدورها إلى مسألة في الفلسفة الخالصة ،

(٩) من « مراحل السيرة » (Curriculum vitae) التي كتبها هيجل نفسه في أيلول ١٨٠٤ ، ونشرها نول (op. cit., pp. 8 - 9) .

وبالتحديد إلى مسألة في الفلسفة الصوفية وفي الحلولية . وهذه ستكون نهاية الطريق الطويل الذي اجتازه فكر هيجل بعد اجهاد كبير .

والتعمق في هذا الطريق أوصل هيجل إلى أكبر اكتشافاته الفلسفية ، تلك الاكتشافات التي ستتألف منها فيما بعد أحجار الزاوية لمذهبه .

ولكن انتقال المشكلة وتوسيعها أدّيا إلى تغيير المثل الأعلى أيضاً . فالمثل الأعلى العملي الكامن في تأسيس « ديانة شعبية » ، وهو ما تابعه هيجل في البداية ، يتراجع إلى الموقع الخلفي من فكره مخلياً المكان لمثل أعلى نظري . فيبحث هيجل بعد ذلك عن حل نظري لما اعتقد أنه قد اكتشفه من تعارضات وتمزقات بين الأشكال المتنوعة للوجود ، وهي محاولة تظهر فيها تدريجياً نزعته الصوفية - الحلولية . أما فكرة « الديانة الشعبية » التي أراد بواسطتها حلّ الصراع ، الذي اعتقد أنه قد اكتشفه ، بين الدين الوضعي والحياة الداخلية للفرد ، فستعطي مكانها لفكرة « الحياة » . وهي فكرة أوسع ، لأنها تتسع تقريباً للكائن كله ، وإن كانت أكثر تجريداً من الأولى .

إن النقد الشديد والجريء للمسيحية الوضعية ، وهو نقد ضروري ، يشكل الهدف الذي سعى إليه هيجل . وهذا هو الموضوع الأساسي لأعماله « اللاهوتية » . ولكن فكر هيجل يذيّل هذا الموضوع بأفكار أخرى ، ربما كانت أهم من الموضوع الذي تنتظم حوله . ولكن كما سبق أن قلت ، فهذا النقد لم يقم به هيجل اللاهوتي بل هيجل الفيلسوف المشرب في البداية بأفكار « حركة التنوير » (ليسينج - هردر) وأفكار كانط . وبعد عده سنوات ومع توسيع المسألة ، فإن الذي يقوم بالنقد هو هيجل المؤرخ ، أو بالأحرى هيجل المؤرخ - الفيلسوف . وفي عامي ١٧٩٨ و ١٧٩٩ نرى مجدداً هيجل الفيلسوف ، ولكنه هذه المرة فيلسوف لا كانطي ، وابن روحي لتاولر وليعقوب بوهمه .

أما كتاب « حياة يسوع » الذي اقدّم الآن ترجمته فيشكل مرحلة من الطريق التي قطعها الفكر الهيجلي بين عامي ١٧٩٠ - ١٨٠٠ ؛ إنها المرحلة الكانطية الخالصة .

٢ - تأثيرات ونزعات .

قد يكون مفيداً ، قبل الحديث عن كتاب هيجل ، أن نحاول ابراز النزعات العميقة لروح مؤلفه ، والتي ظهرت في كتابات الشباب . فقد تساعد هذه المحاولة في توضيح أفضل لمعنى كتاب « حياة يسوع » ، وفي تحديد مكانته بين كتابات هيجل اللاهوتية ، وتكون في الوقت نفسه فرصة مؤاتية للتشديد مجدداً على الأصل الديني والصوفي للنظرة الهيجلية ، الأمر الذي سيجعل تلك النظرة ، المتمرسة في البداية على مادة مزوّدة بالتاريخ الديني ، تصبح ذات أهمية قصوى من أجل فهم المعنى العام لمذهب هيجل اللاحق .

إلا أنه من غير الممكن استخراج النزعات ، أو بعبارة أخرى ردود الفعل الشخصية لروح هيجل الشاب ، دون أن نأخذ بعين الاعتبار ، وفي الوقت نفسه ، بعض التأثيرات الأساسية التي خضع لها .

- أ -

إن البيئة المباشرة التي خضع فيها فكر هيجل الشاب لتأثيرات كبيرة قد وصفها بطريقة مفصلة كل من روزنكرانتس وهايم وكونو فيشر والسيد بول روك[١٠] . وهذه بعض احداثها .

---

(١٠) ROSENKRANZ, op. cit.; HAYM, op. cit.; KUNO FISCHER, Bes- =

ذكر هايم أن كليات ساكس وفيرتمبرغ كانت في القرن الثامن عشر تدرّس الآداب القديمة دراسة جدية . فتجري فيها دراسات متابعة للغة اليونانية . وكان الطالب الشاب المنتسب إلى هذه الكليات يترجم أكثر من مرة مسرحية « آنتيجون » وكتاب ابيكتيت ودرس لونجينوس عن « الجماليات » . وكانت الوظائف المدرسية تتخذ موضوعاتها كلها من التاريخ القديم .

وفي هذا الجو دخل هيجل جامعة توبنجن وصار الصديق الحميم لهولدرلين .

ومعلوم أن هولدرلين كان يكنّ اعجاباً حاسياً لليونان . والفكرة الوحيدة التي كوّنها عن اليونانيين القدماء أنهم شعب بطولي وخالد الشباب ، وأنهم الشعب الوحيد الذي عرف كيف ينمي سائر ملكاته الخلقية والجسدية بطريقة منسجمة ، والشعب الوحيد الذي عرف كيف يخلق حياة جميلة حقاً[١١] .

وترسّخ الاعجاب الذي كان هيجل يشعر به تجاه اليونان القديمة ، بسبب احتكاكه مع هولدرلين ، فصار اعمق من السابق . وبعث فيه هذا الاحتكاك اليونانَ القديمة كما تصورها ، خطأ أو صواباً . فقد كانت الحرية السياسية في المدن اليونانية تستوقف انتباهه دائماً ، فيرى فيها أساس الانسانية السامية التي تنامت في تلك المدن .

وكما سنرى فيما بعد ، فإن هيجل أبدى رأيه في المسيحية من خلال الفكرة التي كوّنها عن اليونان . وفي نهاية المطاف ، فإن اليونان القديمة هي

= chichte der neuren Philosophie(تاريخ الفلسفة الحديثة), Heidelberg,1901, T. VIII, partie 1; PAUL ROQUES, HEGEL, sa vie et son œuvre, (هيجل ، حياته واعماله), Paris, 1912.

(١١) شارل اندلر ، « السابقون لنيتشه » ص ٦٨ .

التي أوحت إليه بالرغبة في مستقبل أفضل لشعبه ، وبفكرة « الديانة الشعبية » .

خضع هيجل في جامعة توبنجن لتأثير « حركة التنوير » الذي لم يملأ كلية الفلسفة وحسب بل كلية اللاهوت أيضاً . وكان شتور ، الذي نقد « بطريقة منصفة »[١٢] كتاب كانط عن الدين ، أستاذ هيجل في كلية توبنجن اللاهوتية .

وقد لاحظ هايم أن شتور كان مؤمناً « بحسب الكتاب المقدس » أكثر من كونه مؤمناً « بحسب الكنيسة » . وهذا ما ينسجم تماماً مع روح « حركة التنوير »[١٣] .

(١٢) كانط ، « الدين في حدود العقل » ، مقدمة الطبعة الثانية ، ١٧٩٤ ، ص ١٥ .
(انظر مؤلفات كانط الكاملة التي نشرها روزنكرانتس في ليبزغ ١٨٣٨) .

(١٣) بذل لاهوتيو جامعة توبنجن ، وعلى رأسهم شتور ، جهوداً كبيرة من أجل التوفيق بين الايمان والعقل كما عرفته « حركة التنوير » (DILTHEY, op. cit. 10 - 11) .
وقد تابع هيجل في النصف الأول من اقامته في توبنجن ـ وقد بقي فيها خمس سنوات ـ قراءة المؤلفين الذين كان يفضلهم في مرحلة دراسته الثانوية وهم : كلوبستوك ، فيلاند ، ليسينج ، هردر وجميع مؤلفي « حركة التنوير » . ولعل قراءاته لليسينج كانت الأكثر ، لأنه غالباً ما يستشهد به في أعماله اللاهوتية ، وحتى في الفترة التي استأثر فيها كانط باهتمامه كلياً ، أي في العام ١٧٩٥ ، عندما كتب « حياة يسوع » .
تناول هيجل في احدى كتاباته في ذلك الوقت مسألة : « هل يمكن القول بواجبات ملزمة حتماً دون التسليم بخلود النفس ؟ » فأجاب وفق مفاهيم فولف تماماً : « ثمة حلقية طبيعية ، إلاّ أن الدين لا يستطيع أن يسيء إليها ، بل يفيدها » . (K. FISCHER, op. cit. p. 11) .
قرأ هيجل كتاب كانط عن الدين في العام ١٧٩٤ . أمّا « نقد العقل الخالص » فقرأه في العام ١٧٨٩ . وفي تلك السنة نفسها بدأ شيلر عمله كأستاذ في جامعة يينا ، وكان مشبعاً بالأفكار الكانطية حول فلسفة التاريخ (K.FISCHER, op. cit., p. 11,25) . وقد أشار لاسون إلى تأثير شيلر على فكر هيجل الشاب (INTRODICTION à la phénoménologie de Hegel, édition du centenaire, p. XXXIX) .

يضاف إلى هذين التأثيرين تأثير آخر عظيم جداً : إنه كـانط . فعندمـا ترك هيجل جامعة توبنجن كان اعجابه بكانط من غير حدود . وكان يقـرأ له باستمرار . وليس علينا سوى تصفح رسائله حتى نقتنع بذلك التأثير .

ففي رسـالته الأولى إلى شيلينـج ، التي يتحـدث فيهـا عن نقـد شتـور لكتاب كانط عن الدين ، قال إن هـذا الكتاب «سيُنقَد كثيراً بـلا شك ولكن « تأثيره ، الذي لا يزال حتى اللحظة مستتراً ، سيرى النور مع الوقت » .

ونذكر أيضاً تأثير صديقه شيلينج الباكر النضـوج ، ذلك التـأثير الـذي يصعب تحـديده[١٤] ، ولكنـه كـان عـظيماً . ففي تلك الفترة لعب شيلينـج بالنسبة إلى هيجل دور المحرّك الكبير[١٥] . وكان تأثير كتب فيختـه وشخصيته كبيراً أيضاً[١٦] .

ولكن يجب ألّا ننسى هنا ، أنه بين الأمور الكثيرة التي أثرت بشدة على مخيلة هيجل الشاب ، كان ثمة تأثير لا تمكن معرفته من الكتب ، تأثير لم يكن بحـاجة إلى اعـادة تشكيله في مخيلتـه ، كـما هي الحـال بـالنسبة إلى اليـونـان القديمة ، بل تنشقه مع الهواء الذي كان يتنفسه : إنه الثـورة الفرنسيـة . فقد تسرّبت اصداؤ ها الصاخبة من خلال الجدران السميكة للمدرسة الداخلية في توبنجن ، وحتى إلى داخل قاعات المحاضرات نفسها . فرحب بها الأصدقـاء الثلاثة : هيجل ، شيلينج وهولدرلين بحماسة ، كما رحب بها عند انـدلاعها عـالم الفكر في المـانيا كلهـا ـ وقد حملت المـذكرات الخـاصة التي كـان هيجل يـدوّنها في ذلك الـوقت هتافـات من نوع : « فلتعشْ الحريـة ! » و« فليعش جان ـ جاك ! » (باللغة الفرنسية)[١٧] .

(١٤) ديلتـاي ، « شبـاب هيجـل » . W. DILTHEY, Die jugendgeschichte Hegels, p. 60, Sqq.

(١٥) هيجل ، الأعمال . HEGEL, Werke, T.XIX, Vol 1, passim.

(١٦) W. DILTHEY, op. cit., 53 Sqq.

(١٧) روى كاتبو سيرة هيجل أن طلاب جامعة توبنجن أسسوا نادياً سياسياً كانوا يناقشـون =

التجربة العظيمة التي كـان الفرنسيـون يسعون إليها في الجانب الآخر من نهر الراين ، من اجل بناء مجتمع انسـاني جديـد على مبـادىء عقلية ، لا يمكن إلّا أن تملأ روح هيجل وأصدقاءه الشباب بـالأمل في مستقبـل أفضل ، فهم أيضاً أبناء ذلك القرن الثـامن عشر المؤمن بـالعقل والحـرية والفضيلة ، و« بحركة التنوير » التي ربما كان ليسينج أصدق تعبير عنها . والغـد الأفضل الـذي انتظروه ، إنمـا كانـوا ينتظرونـه للبشر كلهم : « يبـدو لي أن اهتمـامـه بالأفكار العالمية يتزايد بـاستمرار . فليأتِ ملكوت الله ، ولن يجدنا مكتـوفي الأيدي ! » هذا ما كتبه هيجل لصديقه شيلينج في العـام ١٧٩٥ متحدثـاً عن هـولدرلـين[١٨] . لقد آمن هيجـل الشاب بقـوة ، كما هيجـل دائماً ، بـارتقاء الانسانية وبمستقبل أفضل لها . وكان ينتـظر في ذلك الـوقت أن يتولى سلطان العقل هذا التغيير .

تتضـح روح الاصلاح الكـامنة في الثـورة الفرنسيـة من خـلال مخطط هيجل الشاب لتـأسيس ديانـة شعبية . وهـذه الروح تظهـر أيضاً في كتـابات أخـرى لهيجل (دراسـة حول دستـور المانيـا) ، ولكنه في العـامـين ١٧٩٤ ـ ١٧٩٥ كان يتصور تحقيق ذلك الاصلاح العظيم بواسطة مشروع اجتمـاعي ـ ديني . من المؤكد أن افتتانة باليونان ، كـما تصورهـا هو ، أثّـر على مشـروعه كثيراً . فاليونان هي التي أمدّته بالمثل الأعـلى لديـانة شعبيـة عظيمـة ، ديانـة مولودة على أرض الوطن ، فتكون تعبيراً كاملاً لحياة شعب . أما نجاح الثورة الفرنسية فأمدّه بالثقة في امكانية تحقيق مشروعه .

اعتقد هيجل أن الـدين ، كما تصـوره ، كان حقيقـة . وإذن فهو ليس اختلاقاً مخادعاً من المخيلة ، والبرهان هو اليونان . كما أن العقل جديـر بتغيير وجه الأشياء الانسانية ، والبرهان هو فرنسا . فلماذا لا تكون الديانة الشعبية

= فيه احداث الساعة ، وقد زرعوا شجرة سموها شجرة الحرية . وكان هيجل وشيلينج من المجموعة .

(١٨) HEGEL, Werke, XIX, Vol 1, p. 13.

مثلاً أعلى يسعى إلى تحقيقه ؟ وذلك بصورة حتمية ، لأن هيجل ، على غرار كانط ، يؤمن أن الأخلاقية لا يمكن أن تتحقق بطريقة مستمرة وكاملة في أفراد منفصلين . إنها على هذا الشكل كانت واقعاً هنا أو هناك ، ولكنها لم تدم . لذلك اعتقد هيجل أنها يجب أن تتحقق في مجتمع بكامله .

ومجمل القول ، أن الينابيع التي وجدت فيها روح هيجل غذاءها ابّان تلك المرحلة من نموه ، هي دراسته المكثفة لليونانية واللاتينية ، والدراسات اللاهوتية ، التي جرت بفكر منفتح إلى أبعد الحدود ، و « حركة التنوير » ، وكانط ، والثورة الفرنسية التي اعطت السمة الأساسية لروح ذلك العصر ، وصورة مغرية لانسانية يراها هيجل سعيدة وسامية كما كانت معاشة في اليونان .

- ب -

أما الآن فلا بد من الحديث عن بعض النزعات العميقة لروحه[١٩] .

فأول ما يلفت النظر في هيجل الشاب ، رغبته العظيمة في معرفة العالم الخارجي ، وعطشه الدائم إلى الوقائع ، ومحبته لتفاصيل الأمور ، والعمل المستمر الذي أكبَّ عليه من أجل اغناء معارفه ، وقدرته العظيمة على الاستيعاب .

لقد تحدث جميع الذين كتبوا سيرة هيجل ، بدءاً بروزنكرانتس حتى ديلتاي والسيد روك ، عن الكمية الكبيرة من الملاحظات، التي دوّنها هيجل ابّان دراسته الثانوية ثم الجامعية فيها بعد[٢٠] .

إن اهتمام هيجل بالوقائع ، وفضوله الكليّ هما من سمات الفكر التي تقربه من ارسطو . ولهذا السبب ، فإن هايم ، ومن بعده تين ، شبهاه بالفيلسوف اليوناني[٢١] . وقد بقيت هذه السمات فيه دائماً . ولاحظها السيد

(١٩) انظر صفحة (١٥) من هذا الكتاب .

(٢٠) ب . روك ، « هيجل : حياته ومؤلفاته » . ص ٢٢ ، ٣٩ .

(٢١) تين ، « الفلاسفة الكلاسيكيون » ، الطبعة الثانية عشرة ، ص ١٣٣ .

اندلر أيضاً : « إن مذهبهُ (هيجل) يشتمل على مقدار هائل من الوقائع الوضعية ، وهذا ما ينطبق على الجزء الاقتصادي بمقدار ما ينطبق على سواه . . . »[٢٢] . وقد نوّه أوبرفغ بهذه السمة أيضاً[٢٣] .

وإنني اختار بعض الأمثلة من أجل التوضيح . ففي برن (١٧٩٣ ـ ١٧٩٦) ، وبعد دراسة هيجل للوضع المالي السائد في المدينة ، كتب عملاً حول الموضوع . ويذكر كاتبو سيرته أنه كتب في موضوع « تحوّل علم الحرب ، المشروط بالانتقال من الملكية إلى الجمهورية » . ورغم أن مركز اهتماماته يبقى الدراسات اللاهوتية ، إلاّ أنه في المرحلة التي كتب فيها « روح المسيحية ومصيرها » كان يتابع في الصحف البريطانية المباحثات البرلمانية ، ويدرس اصلاح الأراضي البروسية ويكتب نقداً لنظرية جيمس ستيوارت في الاقتصاد السياسي[٢٤] .

ولكنه لم ينكب على عصره وحده . فالتاريخ أيضاً كان في المقام الأول من اهتماماته ، ومنذ وقت مبكر . ويظهر في يومياته (١٧٨٥ ـ ١٧٨٧) التي كان يكتب معظمها باللاتينية ، أن الزوايا الأبرز كانت تلك التي يصارع فيها للوصول إلى فهم فلسفي للتاريخ[٢٥] .

لم يكف هايم وديلتاي وروك عن الاشارة إلى الاتجاه التاريخي الحاد عند هيجل . فالمشاكل الدينية والميتافيزيقية تتحول بين يديه إلى مشاكل في التاريخ . وقد حفظ هذا الاهتمام بالتاريخ طوال حياته . أوليس فكره ، في النهاية ، عبارة عن جهد عظيم ومستمر للوصول إلى فهم للتاريخ ؟ أوليس الجزء الأساسي من مذهبه ، أي فكرة النشوء ، من وحي التاريخ ؟ صحيح

(٢٢) ش . اندلر ، « أصول اشتراكية الدولة في المانيا » ، ص ١٤٤ .

(٢٣) اوبرفغ ، « أصول تاريخ الفلسفة الحديثة » ، طبعة ١٩٢٣ ، الجزء الرابع ، ص ٨٧ .

(٢٤) ذكر ديلتاي أن قراءات هيجل في تلك الفترة كانت لمونتسكيو وجيبون وهيوم وشيلر .

(٢٥) K. FISCHER, op. cit., 7.

أنه حاول بواسطة مذهبه تنظيم المادة ، المتهافتة للوهلة الأولى ، التي يقدمها له التاريخ ، ولكن في العمق فإن تلك المادة هي التي أوحت إليه ، تحت شكل فرضية تحتاج إلى اثبات ، أن مذهبه مهمة يجب انجازها . أوليس هو الذي جعل الفلسفة تصبح تاريخية ، وعلّمها ، إذا جاز التعبير ، أن ثمة حقيقة تاريخية يجب العمل على فهمها ، أي حقيقة تاريخية مهمة مثل الحقيقة المادية ، ولكنها أقرب إلى العقل الانساني ؟[٢٦] .

إن تمرس فكر هيجل الشاب بالمادة التاريخية أولاً ، كان هاماً إلى أقصى الحدود بالنسبة إلى مذهب هيجل الفيلسوف . وهذا الاتجاه في الفكر الهيجلي لا يُعزى إلى الصدفة المحضة ، بل يتوافق مع ميل عميق في روحه . وقد شدد ديلتاي على هذا الاتجاه ، وكان محقاً تماماً في ذلك .

المشكلة التي طرحها هيجل هي علاقة معطيات النقد الكانطي بالدين ، كما حمله إلينا التطور التاريخي ، أي بالدين الوضعي . وهكذا تساءل : ما هو مصدر العنصر الوضعي في الدين المسيحي ؟ وهذه هي المشكلة التي سعى إلى حلها في كتابه « نقد المسيحية الوضعية » . والحال أن تلك المسألة ، التي كان ممكناً أن تُعالَج بطريقة فلسفية محضة ، تحوّلت بين يدي هيجل إلى مسألة في التاريخ . فقد وصف لنا البيئة اليهودية التي نشأ فيها الدين الجديد ، وسعى إلى فهم ظهور المسيح تبعاً لتلك البيئة . فالمسيح يمثل رد فعل بالنسبة إلى روح تلك البيئة ، وتمرداً من الطبيعة البشرية ، الحرة

(٢٦) حول هذه النقطة ، يظهر أن اوبرفغ قدّر بحق الاسهام الشخصي لهيجل (الفيلسوف فيما بعد) في تطور الفكر الانساني ، بقوله إن القيمة الكبرى لهيجل تكمن في كونه قد جعل من الحقيقة التاريخية بمجملها موضوعاً للفلسفة . وبالتالي ، فإننا إذا تناولنا تاريخ الفلسفة بهذا المنظار نجد أن جدّة المذهب الهيجلي مذهلة . فديكارت واسبينوزا وليبنيتز وهيوم كانوا فلاسفة لا تاريخيين . انظر أيضاً : بنديتو كروتشه ، « ما هو حي وما هو ميت في فلسفة هيجل » ، ترجمة بوريو ، باريس ١٩١٠ ، ص ٥٦ ، ١٤٥ وما يليها . وانظر أيضاً « منطق » المؤلف نفسه ، « المنطق كعلم المفهوم الخالص » ، الطبعة الرابعة ، باري ١٩٢٠ ، ص ٣٦٩ - ٣٧٠ .

في جوهرها ، ضد الشكلية الصارمة للثيوقراطية اليهودية[٢٧] .

بحث هيجل في تلك البيئة عن العناصر التي ضغطت على دين المسيح فجعلته وضعياً بالضرورة . وحاول من جهة أخرى تبيّن العوامل النفسية المستترة ، كالبذور ، في تعليم المسيح نفسه ، والتي أدّت إلى تحول دينه إلى دين وضعي . ولكن هيجل لم يبق هنا ، بل وسّع المسألة ، ودائماً كمؤرخ : تغيير البيئة بتشتت الأمّة اليهودية ، صيرورة الدين المسيحي دين الدولة في امبراطورية عظيمة . . . الخ . فعلى هذا النحو كان فكر هيجل الشاب يعمل في العام ١٧٩٥ ! وهكذا نرى أننا نواجه مؤرخاً - فيلسوفاً أكثر مما نواجه فيلسوفاً بالمعنى الخالص .

وقد ضوعف هذا الميل العميق إلى مواجهة المسائل تاريخياً بميل آخر أوجد سمة سيطرة بدورها على روح هيجل الشاب مثل سيطرة اهتمامه الحاد بالتاريخ عليها . إنه احساسه الديني العميق والحنين الصوفي اللذان تحدثت عنهما سابقاً .

يبدأ كل شعور ديني ، على الأرجح ، في الاحساس بالتناقض الموجود بين حياة الفرد المحدودة وحياة الكون اللامتناهية ، وفي احساس الانسان برغبة حارة ومؤلمة في إزالة هذا التناقض وردم تلك الهوّة . وقد احس هيجل الشاب بذلك التناقض مع قلق ، وتجلّى في شعوره كنوع من التمزق المضني ، فصارت الحاجة إلى اتحاد كامل وحيّ مع الكل تحز في نفسه كل لحظة . فكل تناقض يسبب له ألماً . لذا أراد هيجل أن يصالح كل الأمور بواسطة مفهومين ، هما فكرة « الحياة » وفكرة « الحب » . وقد لعب هذان المفهومان دوراً أساسياً في كتابات الشباب .

وبهذا المنظار ، فإن أكثر ما يعبر عن تلك النزعة هي الأفكار الرئيسية « لمشاريعه » غير المنجزة : « أخلاقية ، حب ، دين » ؛ « حب ودين » ؛

(٢٧) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .

« الحب »[٢٨] . ومن جهة أخرى فإننا نرى في الشذرات التي نشَرها نول بعنوان : « روح المسيحية ومصيرها » ، أن المقولة الأسمى بالنسبة إلى هيجل هي الحياة .

وبواسطة هذين المفهومين للحياة والحب عارض هيجل « حركة التنوير » وكانط وتجاوزهما . وبالاستناد إلى المفهومين نفسيهما نقد بخشونة الديانة اليهودية ، والمسيحية التي تحدّرت منها .

ويمكن القول إن تلك الحاجة الملحة إلى جمع الكل في وحدة حية ومنسجمة ، والميل الروحي عند هيجل إلى مصالحة كل المظاهر المتناقضة في حياته الداخلية الخاصة أولاً وفي الواقع الخارجي تالياً ، هما اللذان خلقا تركيب المواد المختلفة عن المادة التي تنزع اليها روحه ، فاندفع إلى جمعها بهمة تشبه همة النحلة . وهكذا فإن هيجل المفكر الصوفي هو الذي أضفى ، بردة فعل أصيلة من روحه ، صبغة فريدة على كل ما درسه هيجل المشغوف بالواقع ، والملتصق بالحقيقة الخارجية .

- ج -

بعد الاشارة إلى السمتين البارزتين لروح هيجل الشاب ، فلنر عن قرب الطريقة الخاصة التي تلقى بها تأثير البيئة الايديولوجية والأخلاقية التي اشرت باختصار إلى أهم عناصرها في القسم الأول من هذا الفصل .

ونبدأ « بحركة التنوير » . فهي بالتمييز القاطع الذي انشأته بين دين داخلي تماماً ودين تاريخي تحقق في المسيحية الوضعية ، تحت اسمي « الدين العقلي » و « الدين الوضعي » ، جاءت لتدعم وتعمق الشعور بالتنافر الذي كانت روح هيجل الشاب الدينية تحس به بعمق بين هذه الوقائع نفسها .

إننا نعلم أن ليسينج كان يحب التمييز بين العنصر الأزلي والعنصر

(٢٨) نفسه ، ص ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

التاريخي لكل دين[٢٩] . وقد تبنى هيجل الشاب فكرة ليسينج بأن الحقائق الأزلية لا يمكن أن تثبت بواسطة تقاليد تاريخية ، وجعلها فكرته دائماً .

واحد البنود الهامة لعقيدة هيجل الفلسفية سيكون ، فيما بعد ، القناعة الراسخة بأن الحقائق الأزلية يجب أن تؤسس على العقل وحده ، وأن تُستنتج من جوهره[٣٠] . ولهذا السبب لم يعلق أية أهمية على المعجزات ، فقدم لنا « حياة يسوع » من غير معجزات . وكتب : « المعجزة هي الخلق « من العدم » ، ولا توجد فكرة أقل منها توافقاً مع الألوهة » . إلاّ أن عنده سبباً آخر وأقوى لحذف المعجزات . وهذا الدافع أملته عليه النزعة الصوفية لفكره ، ولذلك قال : « المعجزة تمثل ما هو أبعد ما يكون عن الألوهة لأنها ما هو أبعد ما يكون عن الطبيعة ؛ ولأنها تؤكد ، بعنفها المخيف ، أقسى التنافر بين الروح والجسد . العمل الالهي هو تجديد الوحدة وإعادة تكوينها ، أمّا المعجزة فهي أقصى التمزق »[٣١]

ولكن هيجل الذي يقبل تمييز « حركة التنوير » بين الدين العقلي أو الخلقي ، وبين الدين الوضعي ، لا يؤمن أن الدين يمكن أن يكون مسألة خاضعة للاستدلال النظري . فقد ردد دائماً أن الدين من شأن القلب ، وأن استفادته من الذهن محدودة ، لأن وسائل الذهن تبدّد القلب أكثر مما تؤججه[٣٢] .

وهكذا نرى أن هيجل عارض « حركة التنوير » رغم تأثره بها . وفي احدى شذراته وعنوانها « حركة التنوير ورغبة التأثير بواسطة الفهم » نراه يوسع هذه الفكرة الغريبة تماماً عن روح « حركة التنوير » فيقول إن الفهم ،

(٢٩) W. DILTHEY, op. cit., p. 24.

(٣٠) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول (نقد المسيحية الوضعية) ، ص ١٦١ .

(٣١) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول (روح المسيحية) ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٣٢) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول (الديانة الشعبية والمسيحية) ص ٥ ، ٩ و١٤ ، ١٠ .

كانط عن الدين ، حتى أن أثر ذلك الكتاب عليه كان عظيماً . فالمسألة الأساسية التي تهمه مسألة خلقية . ولكنه ، بخلاف كانط ، يعالجها تاريخياً . فيجسِّم ـ إذا جاز التعبير ـ المعطيات الأساسية لفلسفة كانط الدينية والتجربة الداخلية التي كانت روحه الخاصة مسرحاً لها ، في شخصية تاريخية . وفي هذه الفترة كتب « حياة يسوع » .

ولكن رغم سعي هيجل إلى تجاوز فلسفة « حركة التنوير » ، مع احتفاظه ببعض عناصرها ، فإنه سعى أيضاً إلى تجاوز وجهة نظر كانط في ما يتعلق بالدين .

وكما ذكرت سابقاً ، فإن هيجل استطاع الشروع بتلك المهمة ، بواسطة تقصي المسألة تاريخياً ، ثم بواسطة تبديل صوفي لبعض معطيات التصور الديني لكانط .

إنه لم يحارب منهج سلفه العظيم ولكنه حارب نتائجه . فما رفضه من كتاب كانط هو الجزء الذي يجمل فيه كانط بعمق أفكار « حركة التنوير » ، لأن هذه الأفكار لا تتناول دين يسوع ، وكل دين آخر ، إلاّ في علاقته مع الاصلاح الخلقي للانسان[٣٧] . وهكذا تأخذ المحبة ثأرها من صوت الضمير كما صوّره كانط . ففي « روح المسيحية » حارب هيجل كانط وناموسه الخلقي وشرح دين المسيح بطريقة مختلفة عما فعله في « حياة يسوع » ، فأظهر أن خلقية يسوع ليست خلقية الناموس بل خلقية المحبة .

إن الشريعة اليهودية ، إذ تؤكد وجود علاقة خارجية تماماً بين الله والانسان ، إنما تؤكد وجود انفصام بينهما . والناموس الخلقي لكانط ينشيء بدوره انفصاماً بين الذات الفاعلة وبين الناموس الخلقي ، فالأولى فردية أما الثاني فعامّ وكليّ . لكن يسوع ، بتأسيسه دين محبة ، ابدل الناموس الخلقي بنمط من الشعور ، أي بميل إلى العمل على هذا النحو . وهذا الميل أساسه

(٣٧) كانت هذه الفكرة تتكرر بلا توقف في ذلك القرن (انظر Dilthey op. cit) .

من صلبه ، وموضوعه المثالي في ذاته لا في أي شيء غريب (أي في ناموس العقل الخلقي) .

« الخلقية عند كانط هي بالأحرى اخضاع الفردي للكليّ ، وانتصار هذا على ذاك ، أي على نقيضه ، اكثر من كونها رفع الفردي إلى مستوى الكليّ ، وأكثر من وحدة المتناقضين أو حذفهما »[٣٨] . والخلقية عند هيجل يجب أن تكون الغاء هذا الانفصام الذي تظهره الحياة ، فهي تخلق ذلك الانسجام بالمحبة التي تستبعد أية فكرة للواجب .

إن كانط بتأكيده سيادة الناموس الخلقي على ميول الانسان ، يؤكد بهذا الكلام نفسه سيطرة المفهوم العقلي المحض على الحياة . والاختلاف بين الناموس الخلقي عند كانط والشريعة اليهودية ليس إلاّ اختلافاً شكلياً ، فكلاهما يقيمان انفصاماً بدل أن يلغياه . وإذا كانت الشريعة اليهودية تُنصب معلماً خارج الانسان ، فإن ناموس كانط يدخل معلماً في قلب الانسان نفسه . ولهذا السبب ساوى هيجل هذه المرة بين ناموس كانط والشريعة اليهودية . فناموس كانط يمزّق الوحدة الحية للنفس ، لأنه هو أيضاً يقيم تناقضات[٣٩] .

ولكن إذا كنا قد وصلنا إلى هذا الحد في كلامنا على فكرة « المحبة » التي توحِّد وتصالح التعارضات ، فلنذكر هنا تلك السطور التي كتبها هيجل : « المحبة لا تعبّر عن أي واجب . إنها ليست أمراً كلياً يتعارض مع أمر خصوصي . ولا هي وحدة من عمل الفكر المجرّد ، إنما هي وحدة تخلقها الروح . إنها طريقة وجود الهية . أنْ تحب الله يعني أن تشعر بنفسك عائشاً في وحدة مع الكل ، وأن تشعر بنفسك عائشاً في الحياة اللامتناهية الخالية من الحدود . أما القول : « احبب قريبك كنفسك » فلا يعني أن تحب قريبك بقدر ما تحب ذاتك ، لأن محبتك لذاتك لا معنى لها ، ولكنه يعني :

(٣٨) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول ، ص ٣٨٨ ، ٣٨٧ .
(٣٩) نفسه ، ص ٢٦٤ ـ ٢٧٥ ؛ ٢٩٣ ـ ٢٩٦ ؛ ٣٨٦ ـ ٣٩٥ .

احبب قريبك لأنه أنت ! »[٤٠] . وهكذا تكون المحبة نوعاً من الوعي الخارق لعمق وحدة الحياة .

نرى إذن ، أن عمل هيجل يتوالى من جهته النظرية الخالصة تحت تأثير كانط ، ولكن بمعارضة لكانط ، وبالتصدي لجميع التعارضات الحادة التي أنشأتها « حركة التنوير » بين مفاهيم مثل : الله والعالم ، الحرية والطبيعة ، الفهم والعاطفة . وقد فعل هيجل ذلك بمقتضى التكون الخاص لفكره أولاً ، وتحت وطأة اتجاه عام أخذ يؤكده الفكر في عصره[٤١] .

فقد بدأت الفلسفة تعارض جفاف العقل في « حركة التنوير » والعلوم الطبيعية[٤٢] ، مستوحية مثل الشعر ولا سيما شعر غوته العظيم . وكشف هولدرلين في كتابه « هيباريون » (١٧٩٤) عن حلولية أساسها وَحْدُ الفنان . فالعقل في رأيه لا يستطيع فهم اللامتناهي . ومن أجل فهمه لا بدّ من الالهام . وهذا ما أكده هيجل بقوله إنه من أجل الكلام على الله يجب أن نكون ملهمين[٤٣] .

أرادت الفلسفة ، وربما بتأثير من غوته ، أن تؤكد بدورها حقوق الحَدْس على مفاهيم الفهم المجردة . وهكذا سيفهم هيجل ، وهو مؤلف « المنطق » و « الموسوعة » ، الفهم والعلم « بأنهما يحرمان الطبيعة من ربيعها » ، وسيكون طموح فلسفته رسم الطبيعة على مستوى الفكر ، ولكن مع انقاذ « ربيعها » ، وانشاؤها مع الحفاظ عليها حية ، كما يتناولها الحَدْس .

---

(٤٠) نفسه ، ص ٢٩٦ .

(٤١) كان تأثير شيلينج كبيراً في هذا المجال . فالمثالية الموضوعية تحولت عنده إلى حلولية (ديلتاي ، ص ٥٧) . ولكن هذا التصور الحلولي ظهر أيضاً في أعمال شعراء مثل غوته وهولدرلين

(٤٢) وصف هوفديج هذا الاستعداد وصفاً طريفاً (تاريخ الفلسفة الحديثة ، الجزء الثاني ، ص ١٣٩ - ١٤٣ ، ترجمة بورديه ، باريس ١٩٠٦)

(٤٣) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول ، ص ٣٠٥

ويستشهد بغوته في هذه المناسبات . « إنه (غوته) يحس بالحياة وبوحدتها الكلية . ويستشف أن الكون وحدة عضوية وكلٌّ عقلاني»[٤٤] . وهكذا كان الهدف الذي اتجه إليه جهد الفكر الهيجلي : اعطاء تعبير عقلي لحَدْس غوته هذا[٤٥] .

لقد جزأ نقد كانط - إذا جاز التعبير - الوحدة الحية للطبيعة . فلا توجد لديه فكرة الكلية ولا مفهوم الكل . فيبدو الانسجام الحي للروح وكأنه يعاني من تحليلاته وتمييزاته . فنقده يفرِّق كل شيء ، ويرفع حواجز في كل ممرّ : فلم تعد الروح قادرة على العبور من شكل جوهري للكائن إلى شكل آخر . وهذه الحدود تجعل تحقيق فكرة التطور ممتنعاً . وقد أراد المفكرون الذين جاؤوا بعد كانط اعادة انشاء الوحدة ، وحاولوا أن يعيدوا البناء حيث بدا لهم أن كانط كان يهدم . وهكذا فإن موضوع الفلسفة عند هيجل سيكون ترميم الانسجام المهدّم في الروح[٤٦]

كان هيجل أكبر المثاليين بعد كانط ، وقد اجتمعت فيه مختلف طموحات الفلسفة الرومانطيقية ، ومارس هذه النزعات على حد تعبير أويرفع . ودفعته عاطفته الدينية العميقة وحاجته الشديدة إلى الوحدة مع الكل والنزعة العامة لفكر عصره ، إلى اطلاق نزعته الصوفية «والاستسلام لطابع روحه الحلولي . . .

ولكن ، ماذا حصل ؟

المؤلف نفسه الذي كتب في العام ١٧٩٩ « روح المسيحية » والذي استشهدت سابقاً بجملة مميزة منه ، أعلن لشيلينج في العام التالي : « في نموي العلمي ، المنطلق من حاجات الانسانية الدنيئة ، ما اضطرني أن أعود

---

(٤٤) هيجل ، « الأعمال » ، المجلد السابع ، الجزء الأول ، ص ٢١ .

(٤٥) انظر في هذا المجال المقارنة التي قام بها هيجل نفسه بين الشعر والفلسفة النظرية (هيجل ، « الأعمال » ، المجلد العاشر ، الجزء الثالث ، ص ٢٥٤) .

(٤٦) هيجل ، الأعمال ، المجلد الأول ، ص ١٧٢ - الفروق بين فلسفة فيخته وشيلينج .

إلى العلم قهراً . والمثل الأعلى لشبابي اضطر إلى اتخاذ صيغة عقلانية ، بل اضطر أن يتحول إلى مذهب . . . »[٤٧] .

والحقيقة أن الجانب العقلي ، وكذلك الجانب الواقعي لفكر هيجل ، كانا بمثابة الكابح لنزعته الصوفية . ولذا يجب القول عند الحديث عن نزعة هيجل الشاب الصوفية أنها ليست ارادة الاضمحلال في الكل ، الكل الذي سيثبته الفكر وحده بطريقة مطلقة ، عن طريق رد كلٍ ما تقدمه الحقيقة الواقعية من فردي ، وكلٍ حركة إلى ظاهر بسيط . صوفية هيجل ليست صوفية السكون ، أنها صوفية دينامية ، إذا جاز التعبير . وهي تتغذى بالوقائع . فالكل عند هيجل هو حياة . ولكن مقولات الفهم لا تتناول سوى كليّ مفرغ من كل عنصر فردي أو ميزة خاصة ، ولذلك رفضه هيجل . والناموس الخلقي عند كانط مرفوض بدوره ، فهو لا يقيم وزناً لما هو فردي ، ما دام يسحق الفرد .

تصور هيجل أن العلاقة التي تربط الفرد بالكون ، الذي هو حياة ، علاقة عضوية بين الكل وجزئه . وهكذا ، لا يمكن اثبات كون الأجزاء موجودة ومعقولة ما لم نثبت الكل في الوقت نفسه . والعكس صحيح أيضاً ، فالكل لا يمكن أن يُعقل من دون الأجزاء . فهو لا يستوعبها في تماثل مجرد (هوية مجردة) ، بل يؤكد حتمية وجودها الحقيقي[٤٨] .

بادراك هذا النوع من العلاقة ، وتطبيقها على الكائن بكامله ، امتلك هيجل معنى الوحدة الحية والعضوية للعالم[٤٩] فحدّد سمة الواقع بمجمله بأنها

(٤٧) يرجح أن هيجل يتحدث عن الفقرة التي نشرها نول من مذهبه . وفي الرسالة نفسها إلى شيلينج يعلن قراره بأن يكرّس نفسه كلياً للدراسة . وهذا ما فعله في جامعة يينا حيث عمل على التدوين الأولي لمذهبه . ولكن هذا المذهب لم ينشر إلّا سنة ١٩١٥ في هايدلبرغ تحت عنوان : المذهب الأول لهيجل (Hegels Erstes System) . وقد نشره السيدان هانتس آرانبرغ وهربرت لينك .

(٤٨) هيجل ، « الأعمال اللاهوتية » ، طبعة نول ، ص ٣٤٧ ـ ٣٥١ .

(٤٩) فكرة العلاقة العضوية ستصبح الفكرة الأساسية في المذهب الهيجلي .

حياة . أمّا الرباط الذي يوحّد ويجمع الكل والأجزاء فيسمى المحبة . وهذان المفهومان كشفا له لغز شخصية المسيح وأوضحا له المعنى العميق للدين المسيحي . ومن جهة أخرى ، فإنه كان مقتنعاً في تلك المرحلة أن الكون ، أو الكل ، لا يمكن أن يُدرك بالفكر بل بالدين وحده . صحيح أنه غيّر رأيه فيما بعد ، ولكن في تلك الفترة كانت هذه هي الكلمة الأخيرة لحكمته .

٣ ـ « حياة يسوع »

يمثل كتاب « حياة يسوع » مرحلة من الطريق التي اجتازها فكر هيجل بين عامي ١٧٩٠ و ١٨٠٠ ، كما اشرت سابقاً . فقد كتبه في العام ١٧٩٥ ، فكانت صياغته واقعة تحت التأثير المباشر لكتاب كانط عن الدين . وأشار ديلتاي إلى أنه كتاب هيجل الأول . وعلى أية حال ، فهو الكتاب الوحيد المنجز تماماً من بين كل ما نشره نول .

اهتمامات هيجل هنا خلقية وليست تاريخية . والمهمة التي انتدب نفسه لها سبق أن حددها كانط ، بقوله إنه يمكن اجراء التجربة التالية : لنتفحص الوحي ، بما هو مذهب تاريخي ، بطريقة مجزأة ، فلا نتناول منه سوى المفاهيم الخلقية ، ولنر إذا كان سيقودنا ، بهذه الطريقة ، إلى مذهب عقلي خالص للدين . فإذا نجحت التجربة يمكن القول بوجود تلاؤم بين العقل والكتاب المقدس[٥٠]. كان كانط يرى أن الاعتقاد الديني الخالص هو التأويل الأسمى للاعتقاد الوضعي[٥١]. وهكذا سعى إلى أن يكتشف في الكتاب المقدس معنى « يكون في انسجام مع اقدس تعاليم العقل » . وكان كانط يرى أن هذا السعي واجب[٥٢] .

(٥٠) مقدمة الطبعة الثانية من كتاب كانط ، « الدين في حدود العقل » ص ١٣ ـ ١٤ .

(٥١) نفسه ، ص ١٣٠ .

(٥٢) نفسه ، ص ٩٨ .

وقد كتب هيجل « حياة يسوع » تلبية لهذا الواجب . وسعى فيه إلى أن يظهر ، بمثل عيني ، الصراع بين دين خالص ، هو مذهب يسوع ، وبين دين وضعي متحجر في شكلية صارمة ، دين خارجي تماماً ، هو الدين اليهودي ، وإلى أن يؤكد السيادة الخلقية للشخص بالنسبة إلى كل ناموس يريد أن يفرض نفسه عليه من الخارج . وهذه هي مهمة هيجل في كتابه .

وهكذا جعل هيجل من يسوع كانطياً قبل وجود كانط ، إذا جاز التعبير . فنحن نسمع مسيح هيجل يتكلم وكأنه تلميذ لكانط ، فيتحدث عن العقل ، القياس الأسمى للاعتقاد والمعرفة ، « القياس الذي للألوهة أيضاً » ؛ وعن العقل « الذي لا تستطيع أية سلطة على الأرض أو في السماء أن تجد مقياساً للحكم عليه » سوى ما تأخذه منه بذاته ؛ وعن العقل الحر الذي يملي على ذاته ناموس سلوكه الخلقي ، وهو ناموس « مقدس » ، « ناموس تحرير يخضع له الانسان . . . بحرية » ؛ وعن العقل « الذي يفرض الخلقية كواجب » ، وكواجب أوحد ؛ وعن عبادة الله المؤسسة على الناموس الخلقي[٥٣] .

وحسب يسوع هيجل فإن الاعتقاد بالعقل وطاعته وحدهما اللذين يمنحان الانسان السلام والعظمة الحقيقية « لأن الانسان لا يحقق مصيره السامي إلّا بايمانه بالعقل »[٥٤] .

فهل ثمة حاجة إلى القول إن المسيح الذي احيته الأناجيل وتحدثت عنه لم يتكلم يوماً بمثل هذه اللغة ، وإنه من غير المرجح أن يكون قد قام بمحادثات عن « الخدمة المتجددة للعقل المستقر في حقوقه »[٥٥] .

في رسالة إلى شيلينج مؤرخة في ١٦ نيسان ١٧٩٥[٥٦] ، يتعجب

(٥٣) انظر الصفحات التالية من هذا الكتاب : (٦٧ ، ١٠٩ ـ ١١٠ ، ٧٩ ، ٩٩ ، ٥٤ ، ٥٥) .

(٥٤) انظر الصفحتان (٥٣ ـ ٥٤) من هذا الكتاب .

(٥٥) انظر الصفحات التالية من هذا الكتاب : (٧٩ ، ٨٠ ، ٩١ ، ١١٣).

(٥٦) بدأ هيجل بكتابة « حياة يسوع » في التاسع من أيار سنة ١٧٩٥ .

هيجل ـ عن خطأ أو عن صواب ، فليس لنا أن نحكم في ذلك هنا ـ من الكشف « المتأخر » جداً للكرامة التي يضفيها على الشخص الانساني استقلاله الخلقي . فالقيمة الخالدة لفلسفة كانط العملية تقوم في نظر هيجل الشاب على هذا الكشف . ويقول ما جوهره إن هذا الكشف أنصع علامة للأزمنة التي نعيش فيها « ودليل على أن الهالة التي تحيط برؤوس طغاة هذا العالم وآلهته تختفي » . فالفلاسفة يسعون إلى إقامة الدليل على هذه الكرامة ، وستتعلم الشعوب كيف تعيها[٥٧] .

والمسيح في « حياة يسوع » أحد هؤلاء الفلاسفة . إنه يتكلم غالباً على كرامة الانسان الحر خلقياً والذي ينال ، بفضل عقله ، مَلَكَة « استخلاص مفهوم الألوهة من ذاته ومعرفة ارادتها . . . » فيعظ تلاميذه : « أيها الأصدقاء ، أقول لكم ألا تخافوا البشر الذين لا يستطيعون في الحقيقة أن يقتلوا سوى الجسد ، ولا تمتد قدرتهم إلى أبعد من هذا ، ولكن خافوا أن تُهان كرامة روحكم ، فتظهروا أمام العقل وأمام الألوهة مستحقين لفقدان السعادة الأسمى »[٥٨] .

إن مهمة مسيح هيجل على الأرض تكمن في جعل البشر أكثر نبلاً ، بأن يوقظ في روحهم وعي كرامتهم ، ويجعلهم يعرفون الناموس الداخلي الذي يجب أن يخضعوا له بحرية[٥٩] . إنه يوجز الناموس الأساسي لتعليمه بالصيغة الكانطية الشهيرة : « تصرّفوا بحسب مبدأ أساسي ، على أن يكون بامكانكم أن ترغبوا في أن يطبق عليكم أيضاً ، بصفته قانوناً عاماً للبشر »[٦٠] .

وهكذا نرى أن الهدف التي تابعه هيجل الشاب في « حياة يسوع » هو

(٥٧) هيجل ، « الأعمال » ، المجلد التاسع عشر ، الجزء الأول ، ص ١٥ .
(٥٨) انظر الصفحتين (٦٦) و (٩٠) من هذا الكتاب .
(٥٩) انظر الصفحتين (٧٩) و (١٢٣) من هذا الكتاب .
(٦٠) انظر الصفحة (٦٣) من هذا الكتاب .

التجربة التي أوحى بها كانط ، والتي تحدثتُ عنها سابقاً : الكشف عن معنى في الكتاب المقدس « يكون منسجماً مع أقدس تعاليم العقل » .

لقد تصرّف هيجل بحرية لا تحسب أي حساب لنص الأناجيل نفسه ، فأعطاها معنى كانطياً تماماً . فتحول مذهب يسوع التعليمي ، بكل بساطة ، إلى خلقية كانطية . ولكن ألَمْ يقل كانط : « مع أن هذا التأويل يمكن أن يبدو جبرياً إزاء نص الوحي وكأنه مبالغ فيه ، وقد يكون مبالغاً فيه فعلاً ، فإنه يكفي أن يستطيع هذا النص تحمله حتى نفضله على أي تأويل حرفي خالٍ من أية فائدة للخلقية ، أو حتى مضادٍ تماماً لدوافعها »[٦١] ؟ لقد رأى كانط أن الاصلاح الخلقي هو الغاية الحقيقية لكل دين عقلي ، وهذا الأمر كان يراه هيجل أيضاً في ذلك الوقت .

وهكذا حذف ببساطة المعجزات التي ترويها الأناجيل ، وقدّم لنا في العام ١٧٩٥ « حياة يسوع » من دون معجزات . وقد قارن ديلتاي « حياة يسوع » هذه بمسرحية قديمة ، وبأنتيجون مأساة سوفوكليس ، حيث ينشب الصراع بين نواميس الطبيعة السرمدية التي تمثلها أنتيجون وبين النواميس الوضعية .

وكما أشرت سابقاً فإن المحبة ، الدافع الأساسي في الخلقية والدين اللذين أسسهما المسيح ، هي هنا تابع لصوت الضمير بحسب كانط . فتحت تأثير كانط يشدد هيجل دائماً على قدرة العقل البشري على أن يفرض ناموسه على نفسه . ولهذا السبب فقد اعتبر أن الخلقية مؤسسة في جوهر العقل . و « هكذا فإنه نقل إلى عصر المسيحية الأولى وجهة النظر هذه ، إضافة إلى النفور العميق ، المرير والشخصي ، الذي يحس به نحو الدين الوضعي وعقائده وطقوسه »[٦٢] .

(٦١) كانط ، « الدين في حدود العقل » ، ص ١٣٠ و ١٣١ .
(٦٢) DILTHEY, op. cit., 24.

بعد كل ما ذكرناه يبدو جلياً أن « حياة يسوع » ليس ترجمة للأناجيل كما يمكن أن يُفهَم من العنوان الثانوي الذي وضعته منشورات روك . والاستشهادات التي سبق ذكرها تشهد بنفسها على ذلك بطريقة كافية . وكذلك فإن طبعة نول تنقصها الحاشية التي أضافها هيجل نفسه إلى العنوان الأساسي لكتابه ، وهي : « توفيق بين الأناجيل حسب ترجمتي الخاصة » .

ولكن كيف نفسِّر هذه الحاشية الآن ؟ هل أن هيجل لحظة قراره كتابة « حياة يسوع » وضع خطة للقيام بترجمة نصوص الأناجيل ، ثم ترك هذه الخطة عندما بدأ الكتابة فعلاً ؟ هذا أمر محتمل .

ولكن الأكثر احتمالاً أن الحاشية موضوع التساؤل يجب أن تُفسَّر على الشكل التالي : من المؤكد أن هيجل ، أثناء تأليفه الكتاب ، راجع النص اليوناني للكتاب المقدس[٦٣] ، وهكذا فإن لفظة ترجمة تشير ، على الأرجح ، إلى هذا الأمر وحسب . أمّا كلمة « توفيق » فتوضح أن مؤلف « حياة يسوع » سعى إلى مزج الروايات الأربع للأناجيل ، المتباعدة إجمالاً ، في رواية واحدة .

فإلى أي حد استوحى هيجل كلاً من الأناجيل الأربعة ؟

انجيل لوقا هو المصدر الأساسي الذي استوحاه هيجل ، وقد استعمله قبل سواه وأكثر من سواه . وهذا الواقع يفرض نفسه عند مقارنة « حياة يسوع » بانجيل لوقا . فباستثناء المقاطع التي يروي فيها الانجيلي معجزات يسوع ، والتي حذفها هيجل بكل بساطة[٦٤] ، فإن رواية لوقا مرّت بكاملها في « حياة يسوع » .

وأكثر من ذلك فإن هيجل يروي قصة المسيح محافظاً على الترتيب

(٦٣) انظر الهوامش التي سجلها هيجل في الصفحتين(١٢٥) و (١٣٦) من هذا الكتاب .
(٦٤) انظر الصفحة(٣٨) من هذا الكتاب .

الزمني الذي راعاه لوقا ، باستثناء بعض الفوارق غير المهمة[٦٥] .

وعلى سبيل المثال ، فإن مؤلف « حياة يسوع » يستبق الترتيب الزمني الذي اتبعه متى (لم يذكر سوى نهاية حياة يوحنا المعمدان (متى ١٤ : ١ ـ ١٢) ، أمّا هيجل فإنه يروي في بداية كتابه كامل حياة يوحنا المعمدان ، كما فعل لوقا في انجيله (لوقا ٣ : ١ ـ ٢٠)[٦٦] .

واشارات هيجل إلى الأناجيل تعزز بدورها ما أنا بصدد قوله عن علاقة « حياة يسوع » بانجيل لوقا . لأننا إذا وضعنا هذه الاشارات في أربعة أعمدة ، بحيث يعود كل منها إلى أحد الأناجيل الأربعة ، فإننا نلاحظ أن عدد الاشارات إلى انجيل لوقا يفوق كثيراً الاشارات إلى الأناجيل الأخرى ، وأكثر من ذلك ، فإنها تتوالى بحسب تسلسل فصول انجيل لوقا نفسها ، وهذا ما لا ينطبق على الاشارات التي وضعها مؤلف « حياة يسوع » بالنسبة إلى الأناجيل الأخرى[٦٧] .

(٦٥) إن هيجل لم يحافظ مثلاً على الترتيب الزمني للوقا في حديثه عن دعوة متى ـ لاوي بعد العظة على الجبل . فحسب لوقا (٥ : ٢٧ ـ ٣٢) تمت دعوة لاوي قبل العظة على الجبل . وهنا تتبع هيجل ما كتبه متى (٩ : ٩ ـ ١٣) . ولكن من المؤكد أن هذا الأمر لا أهمية له .

وقد غيّر مؤلف « حياة يسوع » الترتيب الذي اتبعه لوقا ، فسرد محادثة يسوع مع زكا بعد مثل الوزنات العشر . وقد وضع لوقا هذه المحادثة ـ التي لم يذكرها سواه من الانجيليين ـ بعد مثل الوزنات العشر (لوقا ١٨ : ٣١ ـ ٣٤ ولوقا ١٩) . وبهذا التغيير جعل هيجل الرواية أكثر وحدة مما هي عند لوقا . لأن مثل الوزنات العشر يرتبط بدقة بتطور الأفكار عند يسوع حول موضوع الموت الذي ينتظره ، وموضوع العلاقات التي يعتقد يسوع أنها قائمة بين الله والبشر . وقد استخدم هذا المثل لتوضيح أفكاره بنموذج محسوس . ولهذا السبب فإن مكانه حيث وضعه هيجل .

(٦٦) انظر الصفحة (٤١) من هذا الكتاب .

(٦٧) تبدأ الاشارة إلى نصوص لوقا في الفصل الثاني وتتوالى تدريجياً حتى الفصل الثاني والعشرين من هذا الانجيل الذي يحتوي على أربعة وعشرين فصلاً . أما الفصل الخامس فهو الوحيد الذي لا يوجد ضمن هذه السلسلة الطويلة ، لأن لوقا لا يروي =

ولكن هيجل لم يحفظ الترتيب الزمني لانجيل لوقا ، بل راعى أيضاً الطريقة التي يروي بها هذا الانجيلي بعض الأحداث .

ففي مَثَل الأمير الذي أراد الاحتفال بزفاف ابنه بوليمة فاخرة[٦٨] ، نجد أن رواية هيجل أقرب إلى رواية لوقا (الفصل ١٤) منها إلى رواية متى (الفصل ٢٢)[٦٩] ، رغم أن الاشارة هنا إلى متى : « . . . فاعتذر أحدهم عن عدم المجيء لأن عنده أرضاً يجب أن يراها ، والثاني بأن عليه أن يذهب لتجريب خمسة أزواج من الثيران قد اشتراها . أما الثالث فبرر غيابه بأنه قد تزوج . . »[٦٩ مكرر]. وهذه الأمور يرويها لوقا، اما متى فاكتفى بالقول إن المدعوين « . . . ذهبوا ، الأول إلى حقله ، والثاني إلى تجارته . . . » ويروي متى أيضاً أن المدعوين قتلوا العبيد ، الأمر الذي دفع الأمير إلى أرسال جنوده لمعاقبتهم . وهذا الحدث لم يذكره لوقا ولا هيجل .

= فيه سوى المعجزات . ولا توجد إشارات إلى الفصلين الثالث والعشرين والخامس والعشرين من انجيل لوقا ، لأن انجيل مرقس يروي آلام المسيح وموته بشكل أكثر تفصيلاً ، لذلك استوحاه هيجل . أما الفصل الأول من انجيل لوقا الذي يروي ولادة يوحنا المعمدان وبشارة مريم فلم يستعمله هيجل .
ولكن الاشارات إلى متى مختلفة . فبعد الاشارات إلى الفصول الأول والثاني والثالث في مطلع كتاب هيجل ، نجد اشارة إلى الفصل الرابع عشر . ثم تتوالى الاشارات بحسب ترتيب فصول انجيل متى نفسها (٤ ، ٦ ، ٧ ، ٩ ، ١٢ ، ١٧ ، ١٨) ، ولكننا نجد بعد ذلك ثلاث اشارات متباعدة (الفصول : ١١ ، ١٦ ، ٢٣) . والسبب في ذلك أن الأحداث التي يرويها متى في هذه المقاطع رواها لوقا في فصلين متتاليين (١٠ و ١١) . وهكذا يظهر أن هيجل تبع رواية لوقا لا رواية متى . والاشارات إلى متى لا تسير بعد ذلك بموجب ترتيب الفصول نفسها (٢٢ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ١١ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥) . والأمر نفسه ينطبق على انجيل مرقس . أما بالنسبة إلى انجيل يوحنا فإن اشارات هيجل تتبع ترتيب فصوله نفسها ، باستثناء الاشارة الثانية إلى هذا الانجيل (الفصل الثالث) .

(٦٨) انظر الصفحات (٩٤ - ٩٦) من هذه الترجمة .

(٦٩) انظر الصفحة (٩٤) من هذا الكتاب .

وبشكل عام ، فإن هيجل يستعين بالأناجيل الأخرى ليكمل قصة المسيح ببعض المعطيات التي لا توجد عند لوقا ، أو بالأحرى ليجعل الرواية أكثر دقة وتفصيلاً ، في بعض نواحيها ، مما هي عند هذا الانجيلي .

وهكذا استعان هيجل بانجيل يوحنا من أجل اكمال رواية لوقا فيما يتعلق بيوحنا المعمدان[٧٠] واستعان أيضاً بانجيل متى من أجل اكمال الرواية الموجزة التي قدمها لوقا عن موت يوحنا المعمدان[٧١] .

واقتبس هيجل عن يوحنا رواية المشاحنة مع الباعة الذين جعلوا تجارتهم داخل الهيكل وحوار يسوع مع نيقوديموس ومع السامرية[٧٢] ، لأن لوقا لم يقدم تفاصيل عما جرى بمناسبة زيارة يسوع الأولى إلى أورشليم (من بعد أن بدأ حياته العامة كمعلم) . واستعان أيضاً بانجيل متى ، لأن لوقا لا يذكر شيئاً عن محادثة يسوع مع أم يوحنا ويعقوب (حوار جرى في زيارة المسيح الأخيرة إلى أورشليم) ، ولا عن القرار الذي اتخذه المجمع الكبير في أورشليم بالقبض على يسوع . واستعان كذلك برواية يوحنا ليسرد ما حصل في بيت عَنْيَا في المناسبة نفسها[٧٣] . وفي الصفحة التي تلي ذلك من كتابه اقتبس هيجل مراجع مفصلة من متى . وبعد بضع صفحات أخرى ، ورغم عدم وجود اشارة إلى لوقا ، نجد أن مَثَل الكرمة مأخوذ من انجيله . ولم

(٧٠) انظر الصفحة (٤٩) من هذا الكتاب .

(٧١) ينقل لوقا خبر موت يوحنا المعمدان بعبارة واحدة أوردها على لسان هيرودوس : « أما يوحنا فقد ضربت عنقه » . ولكن متى يروي في الفصل الرابع عشر الظروف التي أدت إلى ضرب عنق يوحنا المعمدان . ولا بدّ من التنويه بأن هيجل لم يضع إشارة إلى مرقس (٦ : ١٤ - ٢٩) ، مع أن الفكرة التي أوردها من خلال عبارة : « حتى ولو طلبت نصف مملكته ، فسيمنحها ايّاها » غير موجودة إلاّ عند مرقس .

(٧٢) طرد الباعة من الهيكل والمحادثتان مع السامرية ونيقوديموس لم يذكرهما سوى يوحنا .

(٧٣) اكتفى لوقا بذكر توقف يسوع في بيت عنيا ، ولكنه لم يذكر محادثته مع يهوذا في موضوع مريم .

يتحدث لوقا عن اليهود اليونانيين الذين طلبوا مباحثة يسوع، ولم يسرد حوار يسوع مع الفرّيسي الذي أراد معرفة المبدأ الأسمى للخلقية ، فأكمل هيجل معطيات لوقا المتعلقة بزيارة يسوع الأخيرة إلى أورشليم بمعطيات استعارها من يوحنا (١٢ : ٢٩) وهي تقابل متى . (١٢ : ٣٤ ـ ٤٠)[٧٤] .

* * *

يربط ديلتاي كتاب هيجل هذا بمخططه المتعلق بتأسيس ديانة شعبية ، ذلك المخطط الذي أشرت إليه سابقاً[٧٥] . فكتاب « حياة يسوع » ذو هدف عملي إذن ، ولكن يمكننا القول ان هيجل لم يتابع في « حياة يسوع » سوى هدف نظري . لقد أراد أن « يقوم بالتجربة » . التي تحدث عنها كانط في المقدمة الثانية لكتابه عن الدين .

وكيفما كان الأمر ، فما يهم ذكره هنا ، هو المكانة الفريدة التي يحتلها هذا الكتاب ، ليس بين « دفاتر شباب » هيجل وحسب ، بل بين سائر مؤلفاته أيضاً . فمن الواضح أن كتاب « حياة يسوع » هو الوحيد الذي كتبه هيجل ابّان خضوعه بطاعة ، ودون أي رد فعل شخصي ، لتأثير مؤسس

(٧٤) هذه الاشارة غير موجودة عند هيجل .
وحتى نوضح كيف سعى هيجل إلى اتمام رواية لوقا بمعطيات موجودة عند الانجيليين الآخرين ، نذكر ما يلي :
بعد سرد حالة الأرملة التي قدمت فلسين إلى الهيكل ، يتكلم لوقا على احساس يسوع الداخلي بزوال العبادة اليهودية الخ . . . وهنا يستعين هيجل بانجيل متى لكي يتحدث عن تعنيف يسوع للفريسيين . وهذا أمر لم يذكره لوقا .
ومن جهة أخرى فإن هيجل نقل العظة على الجبل عن متى ، لأن هذا الأخير رواها مفصلة (متى ٦ : ١٧ ـ متى ٧) ، والأمر نفسه بالنسبة إلى آلام المسيح وموته فقد نقلها عن مرقس لأنه فصّلها أكثر من لوقا .
وغالباً ، فإن الاشارات إلى الأناجيل الأخرى ليست إلاّ بهدف بعض المعطيات التفصيلية التي نقلها هيجل من أجل توضيح رواية لوقا .

(٧٥) DILTHEY, op. cit., 21.

الفلسفة النقدية . وقد نوّهت بذلك سابقاً . ففكر هيجل كان ينمو تحت تأثير كانط ويتمرّس بالمسائل التي أثارها كانط ، ولكن مع تحركه في الوقت نفسه ضد اتجاهات الفلسفة النقدية . في كتاب « حياة يسوع » يبدو هيجل تلميذاً يقلد كانط حرفياً[٧٦] .

وبهذه الصفة فإن كتاب هيجل الأول ذو قيمة أكيدة بالنسبة إلى الذين يرغبون في أن يعرفوا عن كثب المراحل التي اجتازها فكره . ولكن « حياة يسوع » مثل سائر كتابات الشباب للفيلسوف الألماني ، يقدّم اكثر من ذلك . فهو يمنح بعض الفائدة لكل المهتمين بتاريخ المُثُل ، الذي يمكن اعتباره تاريخاً للتأثيرات .

وفي النهاية ، إن كتاب « حياة يسوع » ذو قيمة خاصة سيعترف بها كل مَنْ يقرأه .

إن كتابات هيجل الشاب أهلٌ لأن تُترجم ، وخاصة « روح المسيحية ومصيرها » . وآمل أن تشجع هذه المحاولة التي قمت بها سائر العاملين في هذا الحقل .

وفي الختام لا بدّ من بعض الملاحظات المتعلقة بهذه الترجمة :

من المعلوم أنني حاولت نقل معنى النص الألماني بأقصى أمانة ممكنة . ولكن هيجل كتب « حياة يسوع » لنفسه ، لذلك لم يعتن كثيراً بالانشاء . ومن بين عدة تعابير ممكنة لم يختر هيجل أكثرها ابتكاراً . وهذا ما يفسر كوني أنا أيضاً ، في موضع الاختيار بين عدة جمل فرنسية موازية ، كنت مجبرةً على

(٧٦) لقد اشرت سابقاً إلى أن موقف هيجل من كانط لم يستمر إلاّ لفترة قصيرة . وكتابه « نقد المسيحية الوضعية » الموضوع في السنة نفسها التي وضع فيها كتاب « حياة يسوع » يدل بوضوح على اتجاه إلى التحرر من هذا الموقف . وهذا ما يرجح الافتراض بأن « حياة يسوع » ليس سوى « تفحص » قام به هيجل بالمعنى الذي تحدث عنه في رسالته إلى شيلينج ، والتي استشهدت بها سابقاً .

استعمال الجملة التي يبدو لي أنها الأكثر أمانة في نقل « إهمال » هيجل ، إذا جاز التعبير .

لغة « حياة يسوع » هي في الغالب ذات بناء غير موفق . فارتباط الجمل الثانوية بالجملة الأساسية لم يتم بحسب قواعد النحو . وهكذا فإن منشورات نول قدمت نصاً مثقلاً بالمعترضات التي نادراً ما أحاطت بجمل معترضة بالفعل . مما اضطر السيدين نول وروك إلى اضافة بعض الكلمات هنا وهناك من أجل جعل النص مفهوماً .

ولقد قارنت بدقة بين نص منشورات نول ونص منشورات روك الذي يختلف عن الأول إلى حد ما . وأشرت إلى كل الفروقات التي وجدتها . وكلما بدا لي أن طبعة روك أكثر توافقاً مع المعنى العام كنت استعملها ، الأمر الذي دوّنته أيضاً في الهامش .

وجزأت النص إلى فقرات قصيرة وعديدة ، تفوق كثيراً ما نجده في طبعتي نول وروك ، وذلك من أجل تحديد المحطات المنطقية لتطور المحادثة ، أو ابراز أهمية بعض الأفكار ، أو اعطاء العديد من الحوارات الشكل الداخلي الذي تتميز به ، وباختصار ، من أجل جعل قراءة « حياة يسوع » أكثر سهولة . هذا بقطع النظر عن أن طبعتي نول وروك تختلفان فيما يتعلق بالتوزيع الطباعي ، فالفقرات في الأولى أطول منها في الثانية .

أمّا الاشارات إلى الأناجيل فقد وضعها هيجل نفسه .

د . د . روسكا

حياة يسوع(*)

(*) تتألف المخطوطة من تسع عشرة ورقة مرقمة بالأحرف اللاتينية من a إلى t ، وحسب التاريخ الذي وضعه هيجل على الصفحتين الأولى والأخيرة ، فإنها كتبت ما بين ٩ أيار و ٢٤ تموز من العام ١٧٩٥ (ملاحظة ن . نول) .

العقل الخالص المتجاوز كل حد ، هو الألوهة بذاتها . فتصميم العالم قد انتظم أساساً[1] بحسب هذا العقل . وهو الذي يدرِّب الانسان على معرفة مصيره والهدف المطلق لحياته . والحق أن الظلمة غالباً ما اكتنفته ، دون أن تتمكن من اخماده تماماً . فحفظ منه ، حتى في الظلمات ، بصيص من نور .

فمن اليهود قام يوحنا داعياً البشر أن يتنبهوا إلى هذه الكرامة التي تخصهم ، وإلى وجوب التفتيش عنها في ذواتهم وفي أناهم الحقيقية ، دون اعتبارها آتية من الخارج . فيجب ألّا يبحثوا عن تلك الكرامة في أصلهم ، أو في الجري وراء السعادة ، أو في الالتزام بخدمة البشر المرموقين ، بل في تنمية الشعلة الالهية المعطاة لهم والشاهدة بما يفوق الوصف ، على أنهم من الألوهة يتحدرون .

تطور العقل هو النبع الوحيد للحقيقة والسكينة ، النبع الذي لم يدَّعِ يوحنا مطلقاً أنه يمتلكه بطريقة حصرية أو كشيء نادر ، بل إن الناس جميعاً قادرون على تفجيره في ذواتهم .

ولكن فضل المسيح أكبر ، لأنه أصلح مبادىء البشر الفاسدة ،

---

(١) يوحنا : ١ .

وعرّفهم الخلقية الحقيقة وعبادة الله المستنيرة .

ولد يسوع(٢) في قرية بيت لحم اليهودية . وكان أبواه يوسف ومريم(٣) . أمّا يوسف فمتحدر من ذرية داود ، حسب عادة اليهود الذين يعلّقون أهمية كبرى على القوائم السلالية .

فلمّا بلغ يسوع يومه الثامن خُتِن حسب الشريعة اليهودية(٤) . ولا يعرف شيء عن تربيته ، سوى أنه أظهر في وقت مبكر علامات ذكاء نادر ، وأنه أبدى اهتماماً بالمسائل الدينية(٥) . ومثالاً على ذلك ، فقد نقل عنه أنه في أحد الأيام ، وكان قد بلغ الثانية عشرة من عمره ، قد أضاع أهله ، مما جعلهم في حزن كبير . لكنهم وجدوه في هيكل أورشليم ، بين الكهنة الذين أخذوا بمعارفه ونضوجه الفائق نسبة إلى سنه .

أما المرحلة ذات الأهمية القصوى بالنسبة إلى تنشئته ، وهي الفترة الممتدة من حداثته حتى بلوغه الثلاثين من العمر ، لمّا أظهر نفسه كرجل كامل وكمعلم ، هذه الفترة التي تسترعي الانتباه الكلي ، فلم يحفظ عنها سوى المعطيات التالية :

لقد عرف يوحنا المشار إليه سابقاً(٦) ، والذي يُقال له المعمدان ، لأنه دأب على تعميد أولئك الذين سمعوا دعوته إلى أن يصيروا أفضل .

شعر يوحنا أنه مدعو لتنبيه مواطنيه إلى أهداف أسمى من المتعة السهلة ، وإلى طموحات أفضل من بعث المملكة اليهودية ببهائها القديم .

---

(٢) متى : ١ و ٢ .

(٣) كانوا يسكنون في الناصرة بالجليل ، ولكنهم اضطروا إلى الذهاب إلى بيت لحم ، مسقط رأس يوسف ، بسبب الاحصاء الذي أمر به أوغسطس (حاشية من هيجل) .

(٤) لوقا ٢ : ٢١ وما يليها .

(٥) لوقا ٢ : ٤١ .

(٦) لوقا ٣ ؛ متى ٣ .

وكان يسكن ويعلّم في العادة في مقاطعة منعزلة ، اما احتياجاته فكانت بسيطة جداً : فملابسه عبارة عن ثوب من وبر الإبل مع زنار من الجلد ، وقوته من الجراد ، الصالح للأكل في تلك النواحي ، ومن عسل النحل البري .

أمّا تعليمه فلم يُعرَف عنه سوى اكتفاؤه بدعوة البشر إلى تغيير طريقة عيشهم ، وإلى اثبات هذا التغيير بالأعمال . فكان يقول إن اليهود أخطأوا في تصورهم أن تحدرهم من فرع إبراهيم يجعلهم في غنى عن تعليمه من أجل استرضاء الاله . وكان يعمّد أولئك الذين أتوا إليه مظهرين توبتهم عن التصورات التي كانت لديهم فيما سبق من حياتهم . وكانت معموديته عملاً رمزياً يدل ، بمشابهته عمل التنظيف من الأوساخ ، على التخلي عن طريقة العيش الفاسدة .

وجاء يسوع بدوره إلى يوحنا واعتمد منه . ويبدو أن يوحنا لم يجد نفسه مستحقاً لأن يكون عنده تلاميذ مرتبطون به . فقد اكتشف الاستعدادات العظيمة التي سيظهرها يسوع لاحقاً ، فشهد له بأنه لا يحتاج إلى المعمودية ، ونصح الاخرين بأن يتجهوا نحو يسوع ويتعلموا منه . ثم أبدى فرحه(٧) لمّا علم أن يسوع قد وجد كثيراً من التلاميذ ، وعمّد الكثيرين (لم يكن يسوع هو الذي يعمّد بل أصدقاؤه) .

وأخيراً سقط يوحنا ضحية الكبرياء الجريح لهيرودوس أمير تلك النواحي ، ولامرأة . ذلك أنه لام علاقة هيرودوس بهيروديا امرأة أخيه ، فألقي في السجن .

لكن هيرودوس لم يجرؤ أن يقضي عليه نهائياً ، لأن الشعب كان يعدّه نبياً .

وفي أحد الأيام أقام هيرودوس حفلاً كبيراً في ذكرى مولده ، ورقصت

---

(٧) يوحنا ٣ : ٢٧ وما يليها .

ابنة هيروديا هذه ببراعة ، فـأعجبت هيرودوس حتى أنـه أقسم أن يعطيهـا ما تتمناه ، ولو نصف مملكته . وكانت أمها الجريحة الكبرياء قد اضطرت حتى ذلك الوقت إلى حبس انتقامها عن يوحنا ، فلقّنت ابنتها أن تطلب موته .

لكن هيرودوس لم يجرؤ على اقناع نفسه ، أو الشهادة أمام مدعـويه أن قسمه لا يشمل ارتكاب جريمة ، فقدّم للصبية رأس يوحنا على طبق ، فأعطته لأمها . أمّا الجسد فدفنه تلاميذه .

ولولا هذه المعطيات عن تلك الفترة من حياة يسـوع ، لما كـادت تُنقل إلى اللاحقة أية سمات لنمو روحه .

وفي سـاعات تـأمله في البريـة[8] ، تساءل يـوماً مـا إذا كان يـرغب في السعي ، عن طريق دراسة الـطبيعة أو بـالتواطؤ مـع الأرواح العلوية ، إلى بلوغ حـد تحويـل العناصر غير الكريمة إلى عنـاصر كـريمة يستعملهـا البشر مباشرة ـ كتحويل الحجارة إلى خبز ـ أو السعي بشكل عام إلى أن يصبح اكثر استقلالاً بالنسبة إلى الطبيعـة (أن يرمي نفسـه إلى الأسفل)[9] . لكنـه أبعد تلك الفكـرة ، آخـذاً بعين الاعتبـار الحـدود التي وضعتهـا الـطبيعـة لسلطة الانسان عليها ، وأن طمـوح الانسان إلى مثـل هذه السلطة أحطّ من كـرامته كـانسان . لأنـه يملك في ذاته قـوة أسمى كثيـراً من الـطبيعـة ، وفي تنميتهـا واصلاحها يكمن الهدف الحقيقي لحياته .

وفي مرة أخرى جال في مخيلته كل ما يعتبـره البشر عـظيماً وجـديراً بـأن يكون غاية نشاط الانسـان : كأن يكـون معلماً وقائـداً للملايين ، وأن يجعل نصف العالم يلهج به ، أو يرى ألوف البشر متعلقين بإرادتـه ونزواتـه ، أو أن

(٨) لوقا ٤ ؛ متى ٤ .

(٩) يلمح هيجل هنا إلى العرض الذي قدمه الشيطان ليسوع بأن يصعـد إلى سطح هيكـل أورشليم وأن يرمي نفسه الخ ... (لوقا ٤ : ٩ ـ ١٢ ؛ متى ٤ : ٥ ـ ٧) .

يعيش في الملذات السعيدة الحاصلة من اشباع رغباتـه[10] ـ أي كل مـا يمكن أن يرضي الخيلاء أو الحواس .

ولكنه لمّا أغرق في التفكير بحثاً عن الشروط التي تسمح وحدها بحيازة ذلـك كله ، حتى ولو استعملت جمعـاء لخير البشـر ، اعني الانحناء تحت نـير الشهوات ، الشهوات الـذاتية وشهـوات الآخرين ونسيـان الكرامـة العظمى والتخـلي عن احترام الـذات ، رفض بلا تـردد ما سـاوره من فكر بتبني تلك الرغبات قـاصداً أن يبقى إلى الأبـد[11] اميناً لمـا نقش في قلبه بـطريقـة لا تمحى ، وعازماً على أن يحترم ناموس الخلقية الأزلي وحده ، وأن لا يؤثر على إرادته المقدسة شيء ما خلا هذا الناموس .

ولم يبـدأ يسوع تعليمـه العلني إلاّ في الثـلاثين من عمـره . ويبـدو أن تعليمـه كـان في البـدايـة وقفـاً عـلى القلة . ولم يلبث أن انضم « إليـه بعض الأصـدقاء »[12] ، منهم ميـلاً إلى تعليمه ومنهم استجـابـة لـدعـوتـه . وكـان يصطحبهم معه دائماً ، ويسعى من خلال قدوته الـذاتية وتعليمـه إلى اصلاح أنفسهـم المحـدودة بـالتعصب والكبـريـاء القـوميـة ، وإلى أن يبعث فيهم روحه[13] التي لا تقيم وزناً إلاّ للفضيلة ، غير المرتبطة بأيـة قوميـة خاصـة أو مؤسسات وضعية .

أقام يسوع غالباً في الجليـل ، وبالتحـديد في كفـرنـاحـوم . ومن هناك كـان ينـطلق عادة في زيـارات[14] إلى أورشليم لمنـاسبـة الأعيـاد اليهـوديـة

(١٠) في طبعـة نول : (رغبـاتـه) ؛ في طبعـة روك : (رغبـات خـالصـة) . إلاّ أن معنى العبارة يرجّح أن يكون نول هو الذي نقل الكلمة بدقة .

(١١) تعبير (إلى الأبد) غير موجود في نص روك .

(١٢) (يوحنا ١ : ٣٥ ـ ٥١) : الكلمات الموجودة بين مزدوجين أضافها نول اكمالاً لنص هيجل الناقص . أمّا روك فقد أضاف هنا (تلاميذ كثيرون) .

(١٣) عند روك : « ... ويبعث فيهم روحه ... » .

(١٤) نول : (رحلة) ؛ روك : (رحلات) .

الكبرى ، وخاصة ابّان الفصح السنوي .

وقد لفت إليه الأنظار بالعمل المؤثر الذي قام به في أول زيارة له إلى أورشليم(١٥) ، بعد أن قدّم نفسه للشعب كمعلم . فقد دخل الهيكل ، حيث يجتمع سائر سكان اليهودية ، مرتفعين فوق الاهتمامات الحياتية الحقيرة ومقتربين من الله بعبادة مشتركة ، فوجد فيه جماعة من صغار الباعة ، الذين يعتمدون على تقوى اليهود ، فيبيعونهم سائر السلع التي يحتاجها اليهودي من أجل قرابينه . وقد جعلوا تجارتهم داخل الهيكل بسبب الحشد القادم من سائر أنحاء اليهودية ابّان الأعياد . فامتلأ يسوع بالسخط من هذه الروح المركنتيلية وطرد الباعة من الهيكل .

التقى يسوع بكثير من الأشخاص الذين قبلوا تعليمه . وأدرك تمام الادراك تمسك اليهود بأوهامهم القومية المتجذّرة ، وقلة ادراكهم للأمور السامية ، فلم ينشىء معهم علاقات حميمة ولم يأمل في قناعتهم : أي أنه لم يعتبر قناعتهم ذات مستوى يسمح بأن يبني عليها أموراً عظيمة . وقد ترفّع عن تفاهة الظن بأن اذعان الكثير من الناس لتعليمه يشرِّفه ، وترفَّع عن ضعف الذين تشتد قناعتهم بشهادة الاخرين .

فإنه لم يكن بحاجة إلى أية موافقة أو أية سلطة ليؤمن بالعقل .

ويبدو أن الانطباع الذي تركه يسوع هنا(١٦) لم ينجم عنه سوى تأثير بسيط على معلمي الشعب والأحبار ، أو أن هؤلاء كانوا يتظاهرون باحتقاره ، أو بالنظر إليه من عل . إلاّ أن أحدهم ويُدعى نيقوديموس ، أحسّ أنه مدفوع إلى الدخول في علاقة أكثر خصوصية مع يسوع ، وأن يتعلّم من فمه أين تكمن الجدّة والتمييز في مذهبه ، وما إذا كان جديراً بالاهتمام . فجاء إليه في ظلمة الليل ، حتى لا يعرِّض نفسه للحقد أو للسخرية . وقال :

(١٥) يوحنا ٢ : ١٣ وما يليها .

(١٦) يوحنا ٣ .

« لقد جئت بدوري حتى أتعلم منك . فكل ما سمعته عنك يثبت كونك مرسلاً من لدن الله ، وأن الله مقيم فيك ، وأنك أتيت من السماء » .

فأجابه يسوع : « الحق أن مَنْ لا يكون أصله في السماء ، ومَنْ لا تقيم فيه قوة إلهية ، ليس من سكان ملكوت الله على الاطلاق » .

فأجاب نيقوديموس : « ولكن كيف يسع الانسان أن يكفر بنوازعه الطبيعية ، وكيف يمكنه أن يكتسب ميولاً سامية ؟ يجب أن يعود إلى بطن أمه ويولد مختلفاً تماماً ، وكأنه كائن من جنس آخر » .

فأجابه يسوع : « الانسان ، بما هو انسان ، ليس كائناً شهوانياً وحسب . وطبيعته ليست محصورة في الميول نحو اللذة وحدها . ففيه الروح أيضاً ، وكذلك جذوة من الكائن الالهي . وما ترثه جميع الكائنات العاقلة هو في متناول الانسان . فكما أنك تسمع صوت الريح وتتحقق من هزيزها ، ولكنك لا تستطيع شيئاً حيالها ، ولا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب ، فإن تلك القوة الحرة والثابتة تتكشف في ذاتك بطريقة لا تقاوم . أمّا الطريقة التي ترتبط بها تلك القوة بسائر مشاعر الانسان المعرضة للتغير ، وبأية طريقة تؤكد سيادتها على ملكات الحس ، فهذا ما نجهله » .

واعترف نيقوديموس أنه يجهل هذه المفاهيم . فقال يسوع :

« أنت معلم في اسرائيل ، فكيف لا تفهم ما أقول ؟ أمّا أنا فاعتقادي بها مثل تأكدي مما أراه وأسمعه . ولكن كيف أستطيع أن ألزمك بالايمان بشهادتي ، إذا كنت لا تعي الشهادة الداخلية لروحك ، أي ذلك الصوت السماوي ؟ ما من شيء غير هذا الصوت ، ونبعه في السماء ، يمكن أن يطلعك على مقتضى العقل السامي . والحال أن السلام والعظمة الحقيقية وكرامة الانسان لا يمكن أن تجدها إلاّ في الايمان بهذا العقل وطاعته .

« ذلك أن الألوهة(١٧) قد ميّزت الانسان عن سائر الطبيعة ، بأن

(١٧) عند روك : « لأن الله . . . » .

نفحت فيه نفحة من جوهرها فوهبته العقل . ولا يستطيع الانسان أن يحقق مصيره السامي من دون الايمان به . فالعقل لا يدين النوازع الطبيعية ولكنه يوجهها ويشرّفها .

« مَنْ لا يطيع العقل فقد أدان نفسه بنفسه ، لأنه أنكر ذلك النور ، ولم يُغذِّه في داخله ، وهكذا يشهد بأعماله من أي روح وُلد ؛ إنه يتملّص من بريق العقل الذي يأمر بالخلقية كواجب ، لأن أعماله الشريرة تقاوم ذلك النور الذي سيملأه بالخزي واحتقار الذات والندم . وعلى العكس من ذلك ، فالذي يتصرّف باستقامة وصدق يقترب بسرور من محكمة العقل ، دون أن يخشى توبيخاته أو المعرفة الذاتية التي يزوِّده بها ، ولا يكون بحاجة إلى اخفاء أعماله ، لأنها تشهد على الروح الذي يحييه ، على روح العالم العقلي ، على روح الألوهة » .

ولمّا أُبلغ يسوع أن العدد الكبير من الأشخاص الذين قبلوا تعليمه أخذ يسترعي انتباه الفريسيين ، غادر أورشليم[18] مجدداً وانطلق إلى الجليل . وكانت طريقه تمر عبر مدينة السامرة . وكان قد أرسل تلاميذه إليها ليبتاعوا طعاماً ، وفي غيابهم توقف عند بئر يبدو أنها كانت تخص يعقوب ، أحد اجداد الشعب اليهودي . فصادف هناك امرأة سامرية وطلب منها أن تعطيه بعض الماء ليشرب . فتحيّرت المرأة كيف أنه ، وهو اليهودي ، يطلب أن يشرب من سامرية ، ذلك أن الشعبين كانا يتبادلان ضغينة دينية وقومية ، منعتهما من اقامة أية علاقة بينهما . فأجابها يسوع :

« لو كنت تعرفين مبادئي ، لما حكمت عليّ بحسب القاعدة الشائعة بين اليهود ، ولما كابدتِ في ذاتك أي تردد في أن تطلبيها مني ، ولكنت فتحت أمامك نبعاً آخر للماء الحي الذي يطفىء عطشك إذا غرفت منه ، فهو الماء الذي ينبجس منه نهر يقود إلى الحياة الأبدية » .

(١٨) يوحنا ٤ .

فأجابت السامرية : « أرى أنك رجل حكيم . وإني أتجاسر فأطلب منك أن تطلعني على أهم خلاف بين ديننا ودينك . لقد أقام آباؤنا عبادتهم على جبل جرِزّيم ، أما أنتم فتؤكدون أن أورشليم هي المكان الوحيد الذي يكرَّم فيه العليّ » .

فأجابها يسوع : « صدقيني أيتها المرأة ، سيأتي زمن لن تقيموا فيه أية عبادة ، لا في جبل جرِزّيم ولا في أورشليم . سيأتي زمن لن يؤمن فيه أحد أن عبادة الله تقتصر على أعمال محددة سلفاً ، أو أنها وقف على مكان معيّن . سيأتي زمن - بل أتى الآن - يكرِّمُ فيه عبادُ الله الحقيقيون الأبَ الكليَّ بالروح الحقيقية للدين ، لأنه يريد مثل هؤلاء العباد الذين يهيمن على أرواحهم العقل الأوحد وكماله : أي الناموس الخلقي . وعلى هذا الناموس وحده يجب أن تؤسس عبادة الله ! » .

وكان للقصة التي روتها المرأة لمواطنيها عن يسوع وحوارها معه ، أثر كبير على رأيهم فيه ، فجاء كثير من السامريين ليسمعوا تعليمه .

وفيما يسوع يحادثهم عاد تلاميذه وقدموا له طعاماً .

فأجابهم : « دعوا هذا ، فأنا لا أفكّر في غذاء الجسد . مهمتي هي صنع مشيئة الله وتحقيق اصلاح البشر . أفكاركم متجهة نحو الطعام ، ونحو الحصاد القريب . ولكن افتحوا أعينكم جيداً[19] ، وانظروا حصاد الجنس البشري الذي نضج ! عجّلوا في تنمية هذا البذار في الحقول التي لم تزرعوها ! إن بذرة الخير التي وضعتها الطبيعة في قلب الانسان أخذت تنمو بذاتها ، هنا وهناك ، أما عملكم فهو العناية بهذه الأزهار والانتظار ، ثم مباشرة العمل الذي بدأته الطبيعة وتعجيل ايناع البذار » .

وأقام يسوع يومين عند السامريين نزولاً عند طلبهم ، فأتاح لهم

(١٩) عند نول : (افتحوا) ؛ عند روك : (فرّحوا) .

الفرصة ليتحققوا بخبرتهم الخاصة من التأثير العميق الذي تركه فيهم حديث المرأة عنه .

ثم مضى بعد انقضاء اليومين إلى الجليل[٢٠] . وفي طريقه ، كان ينصح الناس بأن يغيّروا طريقة عيشهم وأن يصبحوا أخياراً[٢١] . وسعى إلى إيقاظهم من غفلتهم ومن آمالهم العقيمة والخاملة في أن ماسيّا سيظهر قريباً فيسترجع عظمة الديانة اليهودية والدولة .

وكان يقول لهم : « باشروا اصلاح أنفسكم بأيديكم ولا تتكلوا على أحد سواكم ! ضعوا أمامكم هدفاً أسمى من أن تكونوا مجدداً كما كان اليهود الأقدمون ! كونوا أخياراً ! فهذا ما يقرّبكم من ملكوت الله » .

هكذا علم يسوع في كل مكان[٢٢] ، في كفرناحوم الواقعة على ضفاف بحيرة طبريا ، وفي الأماكن العامة ، وفي معابد اليهود . وبينما هو يباحث مواطنيه أبناء الناصرة ، القرية التي ولد فيها ، في موضوع الكتب المقدسة ، قيل عنه : « أوليس هذا ابن يوسف الذي ولد ونشأ بيننا ؟ » إن رأي اليهود المسبق بأن المخلِّص الذي ينتظرونه يجب أن يكون من أصل رفيع ، وأن يظهر بمجد ، كان لا يقاوم . وفي النهاية طرده مواطنوه من المدينة ، فتذكر المثل القائل : « لا كرامة لنبي في وطنه »[٢٣] .

وهنا دعا[٢٤] بطرس واندراوس وكذلك يعقوب ويوحنا إلى أن يتبعوه . فوجدهم منصرفين إلى الصيد وهو مهنتهم ، فقال لبطرس :

« دع السمك ، فسأجعلك صياداً للبشر ! » .

---

(٢٠) يوحنا ٤ : ٤٣ ؛ متى ٤ : ١٢ وما يليها ؛ لوقا ٤ : ١٤ .
(٢١) متى ٤ : ١٧ .
(٢٢) لوقا ٤ : ١٦ - ٣٢ .
(٢٣) الترجمة الحرفية : « أقل مكان يكرَّم فيه النبي هو وطنه » .
(٢٤) متى ٤ : ١٨ - ٢٢ .

وأخذ عدد الذين يتبعونه يزداد[٢٥] ، ورافقه عدد كبير من سكان المدن والقرى . وأمام هذا الجمهور الغفير صعد إلى الجبل ، وألقى ، في هذه المرحلة من حياته العظة التالية :

« طوبى[٢٦] للمستضعفين والفقراء ، فإن لهم ملكوت السموات .

« طوبى للمحزونين ، فإنهم يعزَّون .

« طوبى للودعاء ، فإنهم ينعمون بالسلام .

« طوبى للراغبين في البر بقوة ، فإن رغبتهم تتحقق .

« طوبى للشفوقين ، فإنهم يرحمون .

« طوبى لانقياء القلوب ، فإنهم يقتربون من القدوس .

« طوبى لمحبي السلام ، فإنهم أبناء الله يدعون[٢٧] .

« طوبى للمضطهدين من أجل البر ، والمكابدين في سبيله الشتائم والافتراءات .

« افرحوا وتهللوا فأنتم من سكان ملكوت السموات !

« أمّا عنكم يا أصدقائي فأريد أن أقول : أنتم ملح الأرض ، ولكن إذا فسد الملح فبماذا يملّح ؟ إنه يضيع شيئاً فشيئاً في المواد العادية الأخرى . إذا ماتت قوة الخير فيكم ، فإن أعمالكم ستختفي مع سائر الجهود التافهة وبؤس البشر .

« أثبتوا أنكم نور العالم ، ولتكنْ أعمالكم الصالحة نوراً للبشر ،

---

(٢٥) متى ٤ : ٢٥ .
(٢٦) متى ٥ : ٢٥ .
(٢٧) عند نول : (السلام) ؛ عند روك : (الأطفال) . فنص روك يترجم إذاً كما يلي : « طوبى لمحبي الأطفال ، فإنهم أبناء الله يدعون » .

فتلهبَ ما فيهم من خير ، فيتعلموا كيف يرفعون أبصارهم نحو الأهداف السامية ونحو الآب الذي في السماء !

« لا تظنوا أنني جئت بالصدفة لأكرز ببطلان الشرائع ! ما جئت لأبطل الخاصيّة الالزامية لهذه الشرائع ، بل لأجعلها كاملة ، فأبعث الروح في هذا الهيكل المائت . قد تزول الأرض والسماء ، ولكن وصايا الناموس الخلقي وواجب الخضوع له لا يزولان ! مَنْ يحلّ نفسه أو سواه من واجب اطاعة تلك الوصايا لا يستحق اسم مواطن ملكوت الله . أمّا الذي يتممها في نفسه ، ويعلم الآخرين احترامها ، فذاك يكون معتبراً في ملكوت السموات .

« ما أُضيفه من أجل انجاز مذهب الشرائع بكامله هو الشرط الأساسي : لا تكتفوا بمراعاة نص الشرائع ، الذي يمكن أن يشكل وحده مادة الأحكام البشرية ـ كما يفعل الفريسيون ومثقفو شعبكم ـ بل تصرّفوا بحسب روح الشريعة ، باحترام الواجب .

« سأوضح لكم ذلك بأمثلة من ناموسكم . فاحدى الوصايا القديمة تقول : « لا تقتلْ ، فإن مَنْ يقتل يستوجب المقاضاة » . أمّا أنا فأقول لكم : ليس موت الآخرين بالتحديد هو الذي يسبب مسؤولية الجريمة . صحيح أن الذي يسيء التصرف نحو أخيه لا يمكن أن تعاقبه أية محكمة بشرية . ولكنه ، حسب روح الشريعة ، مسؤول مثل المجرم .

« لقد أمرتكم الشريعة منذ أجيال طويلة أن تقدموا الذبائح في بعض المناسبات . فإذا اقتربتم من المذبح وتذكرتم أنكم قد اسأتم إلى رجل فألمتموه ، فاتركوا تقدمتكم أمام المذبح واذهبوا إلى أخيكم طالبين أن يمدّ لكم يد المصالحة ، ثم ارجعوا إلى المذبح بعد أن تصيروا مقبولين من الله .

« تقول إحدى وصاياكم أيضاً : « لا تزن » . أمّا أنا فأقول لكم إن الخطيئة لا تكمن في الفعل الجسدي وحده ، ولكن الشهوة عموماً تظهر أن القلب قد تدنّس . مهما كان النازع طبيعياً ومستحباً ، فقاوموه بشدة . وازدروه قبل أن يجعلكم تنجرفون بعيداً عن حدود البر ، وقبل أن يجعلكم تنقضون مبادئكم مبدأً اثر مبدأ ، وتتركونها تفسد . افعلوا هذا ولو كنتم بارضاء نوازعكم لا تنقضون حرفاً من الناموس .

« ثمة شريعة قديمة تقول : « لا تحلف بالزور » . ولكن بشكل عام ، إذا كنتم تحترمون أنفسكم ، فإن كل تأكيد وكل وعد تقطعونه بكلمة « نعم » أو « لا » وحدها ، يجب أن يكون صحيحاً ومقدساً وغير منتقض ، مثل اليمين التي تحلفونها باسم الإله . لأنكم يجب ألاّ تقولوا « نعم » أو « لا » إلا إذا كنتم على قناعة بأنها تصلح دستوراً أزلياً للعمل .

« وثمة شريعة مدنية تقول : « العين بالعين والسن بالسن » . ولكن إيّاكم أن تجعلوا من هذه الصيغة القانونية مقياساً لحياتكم الخاصة ، إذا تعلق الأمر بالرد على شتيمة أو باظهار مودة . لا تبالوا بامتلاك الثروات ، واتركوا التوق إلى الانتقام ، واهملوا مصالحكم الخاصة ، حتى المشروعة منها ، من أجل العواطف النبيلة كالرأفة والصلاح .

« لا شك أنه قد فرض عليكم أن تحبوا أصدقاءكم وأمتكم . ولكن إلى جانب هذا فقد سُمح لكم أن تكرهوا أعداءكم والغرباء . أمّا أنا فأقول لكم : احترموا الانسانية ، حتى في اعدائكم . وإذا لم يسعكم أن تحبوهم ، فتمنوا الخير ، على الأقل ، لهؤلاء الذين يلعنونكم ، واصنعوا البر للذين يكرهونكم . تشفعوا من أجل الذين يغتابونكم والساعين إلى إحزانكم .

« وهكذا تصيرون أبناء حقيقيين للآب الذي في السماء ومشابهين لمَنْ لا حدَّ لصلاحه ، حتى أنه يطلع شمسه على الأشرار والأخيار ، وينزل غيثه على الأبرار والفجّار . فإن احببتم مَنْ يحبكم ، وصنعتم الخير للمحسنين إليكم ، وإذا اقرضتم على أمل أن يعود قرضكم كما هو[٢٨] ، فأية قيمة لعملكم ؟ إنها

(٢٨) لوقا ٦ : ٣٥ .

أحاسيس طبيعية ، ولا يتنصّل منها حتى الأشرار . فبهذا لا تكونون قد فعلتم شيئاً للواجب . فلتكن القداسة هدفكم كما أن الإله قدّوس .

« الصدقة والرحمة[٢٩] فضيلتان جديرتان بالاحترام ، ولكن إذا لم تتم ممارستها كالوصايا السابقة بحسب روح الفضيلة ، بل من أجل نيل الحظوة في أعين الناس ، فإنها تفقدان كل قيمة . فإذا أردتم أن تتصدّقوا ، فلا يُنفخ أمامكم في البوق ، كما يفعل المراؤون في الشوارع وفوق المنابر أو على صفحات الصحف[٣٠] ليعظمهم الناس . أمّا أنتم فتصدّقوا في الخفية ، حتى لا تعلم شمالكم ما تفعله يمينكم .

« إن مكافأتكم ، إذا كنتم بحاجة إلى مكافأة بغية تشجيعكم ، هي الفكر المطمئن إلى أنكم قد تصرفتم حسناً ، والاعتقاد أن تأثير عملكم ـ الذي لا يعرف كثير من الناس مَنْ قام به ، والمتمثل بأمور صغيرة ، كالمساعدة التي تحملونها إلى مصاب والعزاء الذي تقدمونه إلى بائس ـ الاعتقاد أن تأثير عملكم غني بالنتائج النافعة من أجل الخلود .

« وإذا صليتم فلا تفعلوا ذلك على طريقة المرائين الذين يركعون في المعابد ، ويضمون أيديهم في الشوارع ، أو الذين يزعجون جيرانهم بتراتيلهم ، حتى يراهم الناس . الحق أقول لكم إن صلاتهم لا تحمل أي ثمر . أمّا أنتم فلتكن صلاتكم في الخلاء أو في غرفتكم ، لأن الصلاة يجب أن تكون تعالي النفس فوق الأهداف الحقيرة التي يطلبها البشر ، وفوق الشهوات التي تتدافعهم . يجب أن ترفعكم الصلاة ، بالفكر ، إلى الله القدوس الذي يذكركم بالشريعة المطبوعة في قلوبكم ، وأن تملأكم باحترام تلك الشريعة ، فلا تؤثر فيكم النوازع على اختلافها .

« لا تصوغوا جوهر صلاتكم بكلمات وجمل كثيرة ، كما يفعل

---

(٢٩) متى ٦ .

(٣٠) من المؤكد أن هيجل نسي أن يسوع هو الذي يتكلم .

المستسلمون للخرافات الذين يظنون أن الكلمات الكثيرة تنيلهم حظوة عند الله ، أو تؤثر عليه وعلى تصميم حكمته الأزلية . لا تتشبهوا بهؤلاء ! فأبوكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه . الحاجات الطبيعية والرغبات التي توحي بها النوازع لا يمكن أن تكون مادة لصلاتكم . فكيف يسعكم أن تعرفوا ما إذا كان ارضاء هذه النوازع يدخل في التصميم الخلقي الذي وضعه الله القدوس ؟

« أمّا إذا صليتم فليحرّككم فكر الله حتى تصمموا في حضرته على تكريس حياتكم للفضيلة . وربّما يمكن تحديد روح الصلاة بالكلمات التالية :

« يا أبا البشر الذي تخضع له كل السموات ، إنك القدوس الوحيد . فلتكن أنت الصورة الماثلة في روحنا ، حتى نسعى إلى الاقتراب منها ! فليأتِ ملكوتك في اليوم الذي يكون جميع المتحلين بالعقل قد جعلوا من شريعته وحدها قاعدة أعمالهم !

« وبهذه الفكرة تُخضع شيئاً فشيئاً كل نوازع الطبيعة وصراخها ! كيف يمكننا أن ننصّب أنفسنا قضاة متزمتين أو متعطشين للثأر من إخوتنا ونحن نحسّ بنقصنا بالنسبة إلى مشيئتك المقدسة ؟ نريد ألاّ نعمل إلاّ على أنفسنا حتى نجعل قلوبنا أفضل ، ونشرّف دوافع أعمالنا ، ونطهّر عواطفنا شيئاً فشيئاً ، حتى نصبح أكثر فأكثر مشابهين لك ، أنت الوحيد صاحب القداسة والمجد اللاّمتناهيين .

« أنتم تمتلكون مقياساً لقياس تقدمكم في الكمال الخلقي : إنه مدى تقدمكم في المحبة الأخوية وفي تصميمكم على التسامح . لا تكتنزوا على هذه الأرض كنوزاً لا تستطيعون الادعاء أنها ثرواتكم الخاصة . فالذهب والفضة والجمال أشياء معرضة للتلف أو لتغيّر الظروف ، حتى إلى الصدأ وإلى أن تبيدها الحشرات ، أو لخطر السرقة . فلا تكن مثل هذه الكنوز هي التي تملأ نفسكم .

« اكنزوا في داخلكم كنزاً لا يفنى ، أي غنى في الخلقية . فهذا هو الكنز الوحيد الذي تستطيعون القول إنه خاصتكم ، بكل معنى الكلمة ، لأنه جزء من « ذاتكم » الحميمة . ولا يقوى عليه شيء ، لا متطلبات الطبيعة ، ولا إرادة البشر الشريرة ولا حتى الموت نفسه !

« وكما أن العين السليمة تُستخدم سراجاً للجسد ، فتقوده في كل تحركاته . فإذا أُصيبت بالخلل يفقد الجسم مهارته في كل ما يقوم به ، فكذلك عندما يخبو نور النفس ، أي العقل ، فمن أين تستطيع الميول والنزعات أن تأخذ وجهتها الصحيحة ؟

« وكما أن أحداً لا يستطيع أن يعمل لسيدين بالحماس نفسه ، فإن خدمة الله والعقل لا يمكن أن تتوافق مع خدمة الحواس . لأن كلاً منها يتنافى مع الآخر . أو أنه سينشأ تقلب خطير وعاجز بينهما . لذا أتوجه إليكم بهذه النصيحة :

« تحرروا من الحاجات المستمرة المتعلقة بالمأكل والمشرب والملبس ، تلك الحاجات التي تشكل المحور الكامل لجهود معظم البشر ، والتي تبدو ، بسبب الاهتمام الذي يعلّقه هؤلاء عليها ، وكأنها هي التي تحدد مصيرهم ، أو أنها الغاية النهائية لوجودهم .

« أفلا توجد في النفس البشرية حاجة أسمى من الغذاء واللباس ؟ انظروا إذنْ إلى طيور السماء ! إنها حرة من كل حاجة ، فلا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الأهراء ، ولكن أبا الطبيعة يتدبّر غذاءها . أُوليس هدفكم أسمى من هدفها ؟ وهل ألزمتكم الطبيعة أن تستخدموا قواكم النبيلة من أجل اشباع حاجات معدتكم وحسب ؟ إنكم تبذلون جهداً كبيراً في تزيين الوجه الذي منحتكم اياه الطبيعة وتجميله . فهل تقدر خيلاؤكم أن تزيد مقدار اصبع إلى طول قامتكم ، رغم العناية والمثابرة اللتين تبذلونها من أجلها . أو انظروا إلى زهور الحقل التي تزهر اليوم بروعة ، ثم تتحول في الغد إلى علف . هل استطاع سليمان ، في كل بهائه ، أن يحاكي جمال

الطبيعة الحر ؟ أبعدوا قليلاً الحاجات الحقيرة كاللباس والقوت ! وليكن الهدف الأسمى لقواكم ملكوتَ الله والخلقية ؛ فبهذا وحده تستحقون أن تكونوا من سكانه . أمّا الباقي فيعطى لكم علاوة على ذلك .

« لا تكونوا قساة[٣١] في أحكامكم على الآخرين . لأنه سيكال لكم بالمكيال الذي به تكيلون ، ويمكن ألّا يكون دائماً لمصلحتكم . لماذا تنظرون بعين الرضى إلى الشوكة الصغيرة في عين سواكم ، ولا تكتشفون الخشبة التي في أعينكم ؟ ولماذا تقولون للآخر : « توقفْ أيها الصديق ودعني أنزع الشوكة من عينك ! » ؟ أيها المرائي ، انزع الخشبة من عينك أولاً ، وبعد ذلك التفت إلى الشوكة ! اعمل على اصلاح نفسك قبل أن ترغب في اصلاح الآخرين ! كيف يستطيع الأعمى أن يقود أعمى آخر على الطريق ؟ أفلا يقعان كلاهما في الحفرة ؟ وهل يستطيع المعلم أن يجعل تلميذه ماهراً إذا لم يكن هو كذلك[٣٢] ؟ إذا أردتم أن تجعلوا الاخرين أخياراً ، فلا تتوجهوا إلى أيٍّ كان وبطريقة متهورة ودون تمييز . لا تعطوا الكلاب ما هو مقدس (الخواتم) ولا تطرحوا لؤلؤكم أمام الخنازير ، لأنها ستكتفي بأن تدوسها ثم ترميكم أرضاً .

« اقتربوا من البشر واطلبوا منهم ، وسيعطونكم في الغالب . فتشوا عن الناحية التي تستطيعون بها الاقتراب منهم ، فإذا وجدتموها ، اقرعوا بلطف وستجدون المدخل .

« تصرّفوا حسب مبدأ[٣٣] يقضي بأن تستطيعوا التمني لو يطبق كقاعدة عامة بين البشر كما يطبق عليكم . فتلك هي القاعدة الأساسية للأخلاق ، ومحتوى كل التشريعات والكتب المقدسة عند كافة الشعوب . ادخلوا من

(٣١) متى ٧ .
(٣٢) لوقا ٦ : ٤٠ .
(٣٣) القاعدة العامة للحكمة هي : « افعلوا للناس ما تريدون أن يفعلوه لكم » ـ قاعدة الخلقية . (جملة شطبها هيجل . وهي غير موجودة عند روك) .

بـاب الحقـوق هـذا إلى هيكـل الفضيلة ! ولا ريب أن هــذا البـاب ضيق ، والطريق المؤدي إليه مليء بالأخطار ومرافقيكم سيكونون قليلين .

« مسكن الشر والهلاك ذو باب واسع وطريق سويّ ، وكثيرون هم الذين يرغبون فيه . احذروا في طريقكم من المعلمين الكَذَبة ، فإنهم يقتربون منكم بمظهر الحملان وفي داخلهم شهوات الذئاب الفتاكة . ولكن لديكم علامة أكيدة لكشف مراءاتهم : أحكموا عليهم بحسب أعمالهم ! لأنه لا يجتنى من الشوك عنب ولا من العليق تين ! كل شجرة طيبة تحمل ثماراً طيبة ، وكل شجرة رديئة ثماراً رديئة . وليس للشجرة الطيبة أن تحمل ثماراً رديئة ولا للشجرة الرديئة أن تحمل ثماراً طيبة[٣٤] .

« إذنْ فمن ثمارهم تعرفونهم . فمن غنى القلب الخيِّر يتدفق الخير ، ومن غزارة القلب الشرير يتدفق الشر[٣٥] . لا تدعوا كلمات التقى والورع تستهويكم . فليس مَنْ يتضرّع إلى الله ويوجه إليه الصلوات ويقدم إليه التقدمات ، يكون عضواً في ملكوته ، بل الذي يعمل بمشيئته التي يهتدي إليها الانسان بواسطة ناموس عقله .

« كثيرون هم الذين سيقفون في اليوم الأخير أمام قاضي العالم ، ويقولون : « ربنا ، ربنا ، أولسنا باسمك قد صنعنا المعجزات ، وطردنا الأرواح الشريرة ، وقمنا بالأمور العظيمة ؟ أولم نمجِّدك بهذه الأعمال ، ونشكرك عليها كأنها أعمالك الخاصة ؟ وسيجيبهم حينئذٍ :

« وما أهمية معجزاتكم[٣٦] أو نبوءاتكم أو أعمالكم العظيمة ! وهل يتعلق الأمر بهذا ؟ الله لن يقرَّ بأنكم من خاصته . لستم من ساكني ملكوته .

(٣٤) لوقا ٦ : ٤٣ .

(٣٥) لوقا ٦ : ٤٥ . عند نول (يتدفق) ؛ عند روك : (يعظم أو ينتفخ) .

(٣٦) نول : (معجزاتكم) ؛ روك : (المعجزات وحدها) . أعتقد أن نول على حق ، لأنه عبَّر بأمانة عن فكرة هيجل ، وهي التالية : « ليست للمعجزات أية أهمية . وحسب نص روك يجب القول : « المعجزات وحدها ليست لها قيمة » .

أنتم صانعو معجزات وأنبياء وخالقو أعمال عظيمة . أنتم تصنعون الشر ، والخلقية هي المقياس الوحيد لما هو مقبول عند الله .

« فمثل مَنْ يسمع هذه المبادىء فيتبناها كمثل رجل عاقل بنى بيته على الصخر . فلما أتت العاصفة ، وسالت عليه الأودية بصخب ، وعصفت الرياح وثارت على ذلك البيت لم يسقط ، لأن أساسه على الصخر . ومثل مَنْ يسمع هذا التعليم ولا يعمل به كمثل رجل جاهل بنى بيته على الرمل ، فلما أتت السيول واندفعت نحوه اسقطته ، وكان سقوطه عظيماً ، لأن أساسه ضعيف ! » .

تركت هذه الأحاديث تأثيراً كبيراً على سامعي يسوع ، لأنه كلمهم بقوة ونبرة ، وكانت المواضيع التي تطرق إليها مما يسترعي أقصى اهتمام البشرية .

ومن ذلك الحين[٣٧] ازداد عدد الذين يتجمعون بغية الاستماع إلى يسوع . ولكن انتباه الفريسيين والأحبار اليهود ازداد أيضاً . وكان يهرع في الغالب إلى الخلاء ، هرباً من صخب تلك الجموع وملاحقة الفريسيين والكهنة .

وأثناء اقامته في الجليل مرّ يوماً من أمام بيت الجباية فرأى فيه عشاراً اسمه متى[٣٨] ، فدعاه إلى أن يكون أحد أتباعه ، فقبل ذلك ثم شرّفه فيما بعد بصداقته الحميمة ، فجلس إلى مائدته وكان معظم الجالسين من الموظفين أمثاله . وكانت لفظة « عشار » مساوية للفظة « خاطىء » عند اليهود ، فأظهر الفريسيون لأصدقاء يسوع دهشتهم لمخالطته العشارين .

وسمعهم يسوع فقال لهم :

« ليس الأصحاء بمحتاجين إلى طبيب بل المرضى وحدهم . تأملوا

(٣٧) متى ٨ ؛ مرقس ٢ : ١٣ .

(٣٨) من المحتمل أن هذه القصة نفسها وردت عند لوقا (٧ : ٢٥) ومرقس (٢ : ١٤) سوى أن الرجل فيها يحمل اسم لاوي (ملاحظة لهيجل) .

أيضاً وأنتم سائرون في معنى ما جاء في أحد كتبكم المقدسة : « ليست الذبائح هي المقبولة عندي ، إنما الاستقامة » .

وكان بعض تلاميذ يوحنا المعمدان مندهشين مثل الفريسيين ، إذْ أنهم كانوا يصومون كثيراً ، بعكس أصدقاء يسوع الذين لا يصومون . فأجاب يسوع عن تساؤلاتهم :

« أي سبب حقيقي لديهم حتى يكونوا حزانى ؟ ستأتي أيام يرفع فيها معلمهم ، كما رفع معلمكم ، وحينئذ يمكنهم أن يصوموا ! وعلى كل حال ، لماذا تريدون أن أطلب منهم مشقة كهذه في طريقة حياتهم ؟ إن هذا الأمر لا يتفق مع عاداتهم التي ساروا بموجبها حتى الان ، ولا مع مبادئي التي لا تقيم وزناً للمشقة الخارجية ولا تسمح لي بأن أفرض على الآخرين مراعاة لنص الممارسات » .

ولّما اقترب عيد الفصح[٣٩] ذهب يسوع إلى أورشليم مرة ثانية . وأثناء إقامته هناك ، حنق اليهود عليه كثيراً ، لأنه أسدى خدمة إلى أحد المرضى المحتاجين يوم السبت .

فقد رأوا في عمله تدنيساً لهذا اليوم المقدس وقرينة على عدم اعتباره هذه الوصية التي أمر بها الله نفسه وصية ملزمة ، وعلى انتحال حق لا يعود إلاّ إلى الله وحده ، وعلى اعتباره سلطته مساوية لسلطة الإله . فأجابهم يسوع :

« إذا كنتم تعتبرون مجموع شرائع كنيستكم ووصاياكم الوضعية بمثابة الناموس الأسمى المعطى للانسان ، فإنكم بذلك تتنكرون لكرامة الانسان ولقدرته على استخراج مفهوم الألوهة من ذاته ومعرفة مشيئتها . ومَنْ لا يحترم هذه القدرة التي فيه ، لا يمجّد الإله . ما يستطيع الانسان أن يسميه « أناه » ، هو ما يرتفع به فوق القبر والفساد ، ومَنْ يمنح نفسه المكافأة

---

(٣٩) يوحنا ٥ .

المستحقة يكون مسؤولاً عن محاكمة نفسه . هذه الأنا تُعتلن مثل العقل الذي لا تتوقف شرائعه على أي شيء ، والذي لا تستطيع سلطة على الأرض أو في السماء أن تدل على مقياسٍ آخر للحكم عليه . ما أعلّمه ، لا أعلنه على أنه فكرتي أو خاصتي ، ولا ألزم أي إنسان بقبوله معتمداً على سلطتي ، لأنني لا أسعى إلى تمجيد نفسي . إنني أخضع تعليمي لنقد العقل الكليّ ، وهو الذي يحمل كل إنسان على أن يؤمن به أو لا يؤمن .

« ولكن كيف يمكنكم أن تقبلوا العقل بمثابة مقياس أسمى للمعرفة والايمان ، إذا كنتم لا تنصتون لصوت الألوهة ! أنتم لم تستمعوا يوماً إلى صدى هذا الصوت في قلبكم ، ولم تعيروا انتباهاً إلى مَنْ يطلق هذا الصوت . أنتم تعتقدون أن معرفة مشيئة الله وقف عليكم ، وتجعلون من التمييز الذي يضعكم فوق سائر أبناء البشر مادة طمعكم . أنتم تبتهلون إلى موسى ، ودائماً إلى موسى ، فتؤسسون إيمانكم على سلطة غريبة لرجل مفرد . أجل ! اقرأوا كتبكم المقدسة بعناية ، ولكن يجب أن تحملوا معكم إليها روح الحقيقة والفضيلة . وستجدون فيها الشهادة على هذه الروح ، وفي الوقت نفسه الشكوى عليكم : أي أن كبرياءكم السعيدة في أفقها المحدود لا تسمح لكم أن ترفعوا أنظاركم إلى أمر يعلو على علمكم الذي تعوزه الروح ، وعلى ممارساتكم الآلية » .

وتتيح بعض الأسباب للفريسيين فرصة اتهام يسوع وتلاميذه مرة أخرى بأنهم يدنسون السبت[٤٠] . ففي أحد الأيام كان يتنزه مع أصدقائه في حقل مزروع . فأحسوا بالجوع ، وراحوا يقلعون السنابل ، أو ما كان مزروعاً هناك - ويرجح أنه الفاصوليا الشرقية . ويمضغون الحبوب (وهو الأمر الوحيد المسموح به) . ورأى الفريسيون ذلك فلفتوا انتباه يسوع إلى أن تلاميذه يقومون بأمر يُحرِّم القيام به يوم السبت . ولكن المسيح أجابهم :

---

(٤٠) متى ١٢ : ١ - ٨ ؛ لوقا ٦ : ١ - ٥ .

« ألا تذكرون في تاريخ شعبكم أن داود حين جاع أكل الخبز المكرَّس للهيكل ووزّع أيضاً على أصحابه ؟ ألا يتمّم الأحبار في الهيكل أعمالاً مختلفة ، حتى في السبت نفسه ؟ هل الهيكل هو الذي يجعل هذه الأعمال مقدسة ؟ أمّا أنا فأقول لكم : الانسان أعظم من الهيكل . الانسان ، لا أي مكان محدّد ، هو الذي يقدّس الأعمال أو يجعلها نجسة . فالسبت قد جُعل من أجل الانسان وليس الانسان مَنْ جُعِل من أجل السبت ، لأن الانسان سيّد السبت أيضاً . لو فكرتم فيما قلته سابقاً للبعض منكم حول معنى هذه الكلمات : « الله يطلب المحبة لا الذبائح » ، لما أنّبتم هؤلاء الأبرياء بخشونة » .

ودخل يسوع المعبد في سبت آخر ، وكان ثمة رجل يده مصابة ، فأراد اليهود أن يجدوا سبباً لاتهام يسوع ، فسألوه أن يقول لهم ما إذا كانت تجوز معالجته في ذلك اليوم . فأجاب يسوع :

« مَنْ منكم إذا كان له خروف ووقع في حفرة ، لا يخرجه يوم السبت ؟ أفلا يساوي الانسان أكثر من خروف ؟ لذلك يحلّ فعل الخير يوم السبت » .

لقد أدركنا بأمثلة عديدة سوء نية الفريسيين نحو يسوع . وبالفعل فقد اتفقوا من ذلك الحين مع جماعة هيرودوس[41] على ازاحة يسوع من طريقهم ، إذا استطاعوا ذلك .

وهكذا ذهب يسوع إلى الجليل ، حيث أخفى مكان اقامته بسبب تلك الملاحقات . وشدّد كثيراً على سامعيه الموجودين عنده ألاّ يبوحوا بمكان اقامته .

واختار يسوع اثني عشر من سامعيه[42] ، حتى يكون إلى جانبه دائماً بعض الأشخاص الذين يستطيع أن ينفخ فيهم روحه الخالصة : لأنه أدرك

(٤١) روك : (اتفقوا مع هيرودوس) .

(٤٢) لوقا ٦ : ١٢ ـ ١٣ .

جيداً أن حياة شخص واحد وقواه لا تكفي للنهوض بأمّة كاملة إلى الخلقية . وكرّمهم بتعليم خاص ، حتى يجعلهم قادرين على مساعدته في نشر مذهبه التعليمي . أمّا أسماؤهم فهي ، انظر مرقس ٣ : ١٦ ـ ١٩ .

ولمّا أرسل يوحنا المعمدان بعض أصدقائه إلى يسوع[43] ليسألوه عن هدف تعليمه ، أخذ يعنّف الفريسيين لأنهم تلقوا ببرود دعوة يوحنا لهم إلى أن يكونوا أخياراً . وقال :

« أي فضول دفعكم للذهاب إلى الصحراء ؟ من المؤكد أنها ليست الرغبة في أن تصبحوا أخياراً . أخرجتم لتروا أحداً من الذين يشبهونكم ، أو رجلاً بلا ميزة يغيّر مبادئه بحسب مصلحته[44] ؟ أقصبة تهزها الريح من جهة إلى أخرى ؟ أم رجلاً بثياب فاخرة يعيش عيشة باذخة ؟ إنكم لن تصادفوا مثل هؤلاء الرجال في الصحراء بل في قصور الملوك . أو ربما ذهبتم لرؤية نبي أو صانع معجزات ؟ أن يوحنا أعظم من كل ذلك .

« لقد لاقى يوحنا ترحيباً في الطبقة الدنيا من الشعب ، ولكنه لم يستطع أن يؤثر على الفريسيين أو مفسري الشريعة التقليديين ، ولا أن يجعل قلوبهم سهلة البلوغ إلى الخير . فبماذا أشبه هذا النوع من البشر ؟ أيشبهون أولاداً يلعبون في الساحة العامة ، ويصيح بعضهم ببعض : « زمرنا لكم فلم ترقصوا ! نَدبنا لكم فلم تبكوا ! » جاءكم يوحنا ، فلم يأكل خبزاً ولا شرب خمراً ، فقلتم : « إن مزاجاً سيئاً يعذبه » . وجئتكم أنا آكلاً وشارباً كسائر البشر ، فقلتم أيضاً : « هذا الرجل أكول وسكّير ويعاشر أحقر البشر » . ولكن الحكمة والفضيلة ستجدان دائماً عباداً يثبتون قيمتها » .

ورغم هذا التصنيف دعاه أحد الفريسيين ، واسمه سمعان ، إلى تناول الطعام . وعلمت امرأة أن يسوع مدعو عند سمعان ، ويبدو أنها

(٤٣) لوقا ٧ : ١٨ .

(٤٤) يختلف نص نول قليلاً عن نص روك ، إلاّ أنه يحافظ على المعنى نفسه .

تأثرت كثيراً بتعليمه ، فجاءت إلى الغرفة ومعها قارورة من الطيب النفيس ، اقتربت من يسوع ، وراحت تبكي متأثرة برؤيتها رجلاً فاضلاً ، وباحساسها بحياتها المليئة بالأخطاء ، ثم ارتمت على قدميه ، وهي تشعر أنها بمثل هذا تسهم في توبتها ورجوعها إلى طريق الفضيلة ، فقبلت قدميه وبللتهما بدموعها ومسحتهما بشعرها ودهنتهما بالزيت النفيس . ولكن الطيبة التي تقبّل بها يسوع هذه المظاهر ، الدالة على أن قلباً مليئاً بالتوبة والاعتراف قد وجد عزاءً ، هذه الطيبة التي لم ترفض هذا الاحساس جرحت رهافة الفريسيين . وظهر على سحنتهم مدى تحيّرهم من كون يسوع قد تلقى بحب عظيم امرأة ذات سمعة سيئة . وأدرك يسوع ذلك فقال لسمعان :

« عندي ما أقصه عليك » .

فقال سمعان : « تكلم » .

فروى يسوع : « كان لدائن مدينان ، له على أحدهما خمسمئة دينار وعلى الاخر خمسون . ولم يكن بوسعهما دفع دينهما ، فأعفاهما منه . فأيهما يكون أكثر حباً له ؟ » .

فأجابه سمعان : « مَنْ أعطاه أكثر ، بالتأكيد » .

فقال يسوع : « بلا شك » . ثم أشار إلى المرأة وتابع : انظرْ هنا . إني دخلت لبيتك فلم تقدِّم إليّ ماء لأغسل قدمي . أمّا هي فقد بللتهما بدموعها ومسحتهما بشعرها . أنت لم تقبّلني ، أمّا هي فلم تعتبر أن تقبيلها قدميّ يحطّ من كرامتها . أنت لم تدهن رأسي بزيت ، أمّا هي فبالطيب النفيس دهنت قدميّ . إن امرأة قادرة على حب كهذا ، واعتراف كهذا ، ستغفر لها خطاياها مهما كانت كثيرة . لأن البرودة في العواطف النبيلة على هذا النحو تشهد أن لا رجوع إلى الفضيلة المترفعة عن الأغراض » . ثم قال يسوع للمرأة : إنها لسعادة الهية أن أشهد انتصار إيمانك في ذاتك ، وثقتك في أنك ما زلت قادرة على فعل الخير ، وعلى شجاعتك ! فعيشي بسلام ! » .

وتابع يسوع طريقه عبر المدن والقرى وهو يعظ في كل مكان[٤٥] . وكان يصحبه رسله الاثنا عشر ونساء بعضهن غنيات كنّ ينفقن من أموالهن على اطعام الجماعة . وفي أحد الأيام احتشد جمع كبير فضرب لهم هذا المثل : (المثل قصة خيالية تقدِّم مذهباً تعليمياً بطريقة محسوسة ، وهو يختلف عن الحكاية والأسطورة من حيث الشخصيات الفاعلة ، فهي في المثل بشر وفي الحكاية حيوانات وفي الأسطورة جنّ أو كائنات رمزية) :

« خرج الزارع ليبذر بذره . فوقع قسم منه على الطريق فداسته الأقدام وأكلته الطيور . ووقع بعضه الاخر على الصخر ، حيث التربة قليلة ، فنبت ولكنه يبس بسبب الحرارة ولأن جذوره غير عميقة . ومنه ما وقع بين الشوك ، فنما الشوك معه وخنقه . ومنه ما وقع على الأرض الجيدة فأعطى ثلاثين وستين وحتى مئة ضعف » .

ولمّا سأله تلاميذه لماذا يعرض تعليمه للشعب من خلال الأمثال ، أجابهم :

« إن عندكم معنى الأفكار السامية المتعلقة بملكوت الله ، وبالخلقية التي ينشأ منها حق الانسان في أن يكون مواطناً فيه . ولكن الخبرة علّمتني أن هذا المعنى هو مجرد كلمات فارغة بالنسبة إلى اليهود . وعلى الرغم من ذلك فهم يرغبون في أن يسمعوا مني شيئاً ، ولكن أحكامهم المسبقة متجذِّرة بشكل لا يسمح للحقيقة العارية بالدخول إلى قلوبهم . وحده الذي يحوز استعدادات لتقبّل شيء أسمى في داخله ، يستطيع أن ينتفع من تعليمي . أمّا الشخص الذي ينعدم فيه هذا الحس بما هو أسمى ، فإنه لن يعرف على الاطلاق كيف يستخدم المعرفة القليلة التي يمكن أن يحوزها بالصدفة . إن لهم عيوناً ولا يرون شيئاً ، ولهم آذان ولا يسمعون شيئاً . ولهذا فاني لا أكلمهم إلاّ بالمثال، وهاكم شرحه :

(٤٥) لوقا ٨ .

« الزرع المبذور هو معرفة الناموس الخلقي . ومَنْ سنحت له الفرصة لهذه المعرفة ، ولم يفهمها جيداً ، فأيُّ مضلٍّ يستطيع أن ينزع بسهولة المقدار القليل من الخير الذي زرع في قلبه بالصدفة . وهذا هو معنى الزرع الذي سقط في الطريق .

« أمّا ما سقط في الأرض الصخرية ، فهو المعرفة المقبولة بفرح حقيقي ، ولكن من دون جذور مغروسة في العمق ، لذلك تستسلم سريعاً للظروف ، وتبيد إذا هددت الشدائد والآلام مصداقيتها .

« والزرع الساقط في الشوك ، يشبه أولئك الذين يتحدثون عن الفضيلة فعلاً ، ولكن الفضيلة تبقى في نفسهم ولا تعطي ثمراً ، لأن نفسهم مخنوقة باهتمامات الحياة وباغواء الغنى المخادع .

« أمّا الزرع في الأرض الجيدة ، فهو صوت الفضيلة المسموع ، والذي يحمل من الثمار حتى ثلاثين وستين ومئة ضعف » .

ثم ضرب لهم يسوع أمثلة أخرى[٤٦] :

« يمكن أن نشبه مملكة الخير بحقل زرعه صاحبه زرعاً جيداً . وبينما رجاله نيام جاء عدوه[٤٧] فزرع بين القمح زؤاناً ثم مضى خفية . فلمّا بدأ النبت يُخرج سنابله ظهر الزؤان أيضاً . فسأل الخدم سيّدهم :

« لقد زرعت زرعاً خالصاً في حقلك ، فمن أين جاءه الزؤان ؟ » .

« فأجابهم السيد : « بعض الأعداء فعل ذلك بالتأكيد » .

« فقال الخدم : « أتريد أن نذهب فنستأصله ؟ » .

« فأجاب السيد[٤٨] ، وهو أكثر منهم حكمة : « لا ، لأنكم

(٤٦) متى ١٣ .
(٤٧) نول : (عدوه) . روك : (صديقه) .
(٤٨) نول : (ردّ) ؛ روك : (أجاب) .

ستنتزعون سنابل الحنطة مع الزؤان . فدعوهما ينبتان معاً إلى يوم الحصاد . وحينذاك أقول للحصادين أن يفصلوا الزؤان ويتلفوه ، وأن يجمعوا الحنطة الخالصة » .

ولمّا أصبح يسوع وحيداً مع تلاميذه ، طلبوا تفسير المثل ، فأجابهم :

« زارع الزرع الجيد يمثل البشر الأخيار الذين يلفتون نظر الناس إلى الفضيلة بأقوالهم وقدوتهم . والحقل هو العالم . والبذور الجيدة هي البشر النخبة ، أمّا الزؤان فهم الفاسدون . والعدو الذي زرع الزؤان يمثل الضالين والمضلّلين ، وزمن الحصاد هو الأبدية ، وجزاء الخير والشر . وبانتظار ذلك ، فإن الفضيلة والشر يكونان في علاقة وثيقة أحدهما بالآخر ، فيمتنع الآن استئصال الأخير دون التسبب في ايذاء الأولى » .

وبمنظار آخر شبه يسوع مملكة الخير بحبة الخردل ، التي رغم صغرها تصبح غرسة عظيمة ، حتى أن الطيور تستطيع أن تصنع فيها اعشاشها . وشبّهها أيضاً بالقليل من الخمير الذي يوزع على ثلاثة مكاييل من الدقيق ، فيخمر الأجزاء كلها . إن مملكة الخير مثل البذور التي تزرع في الأرض ولا تحتاج إلى أية عناية ، فإنها تنبت وتنمو دون أن يعرف أحد كيف يتم ذلك ، لأن الأرض بطبيعتها تملك قوة خاصة ، بواسطتها تنبت البذور وترتفع ساقها وتحمل سنابل ممتلئة[٤٩] .

وشبّه مملكة الخير أيضاً بكنز دفين في حقل ، وجده رجل ، فأخفى أمره . ثم ذهب فرحاً وباع كل ما يملكه ليشتري هذا الحقل . وشبّهها أيضاً بتاجر كان يطلب اللؤلؤ الجميل ، فلما وجد لؤلؤة ثمينة باع كل شيء ليقتنيها . أو بصياد وجد في شبكته سمكاً من كافة الأنواع ، فذهب إلى الشاطىء وفصل الجيد فوضعه في أوعيته ، وطرح الرديء . وهكذا في يوم الحصاد العظيم ، فإن الأبرار يميّزون عن الأشرار . أمّا الأبرار فبالمكافأة التي

(٤٩) مرقس ٤ : ٢٦ .

سيجدونها في السلام الذي تعطيه الفضيلة ، وأمّا الأشرار فبذمهم واتهامهم لأنفسهم وخزيهم[٥٠] .

وحينئذٍ[٥١] جاء أقارب يسوع ليروه ، فلم يستطيعوا الوصول لكثرة الجمع . فابلغ يسوع بذلك ، فأجاب :

« إن أمي واخوتي هم الذين يسمعون صوت الإله ويطيعونه » .

ولّما جاءه خبر موت يوحنا المعمدان ، ركب سفينة على الشاطىء الشرقي لبحيرة طبرية[٥٢] ، ولكنه لم يلبث سوى فترة قصيرة بين الجراسيين ، ثم عاد إلى الجليل من جديد[٥٣] .

وفي الوقت عينه أرسل يسوع رسله الاثني عشر لمواجهة اليهود المتعصبين ، المزهوين بنسبهم وأصلهم ـ وهي أشياء ذات قيمة كبيرة في نظرهم ـ لذلك وضعوها فوق القيمة المفردة ، تلك القيمة التي تضفيها الخلقية على الانسان[٥٤] . وقال لهم :

« لستم في حاجة إلى القيام باستعدادات كثيرة من أجل رحلتكم ، أو إلى أن تلفتوا الأبصار بشيء من البذخ . اقيموا زمناً حيث يستمعون إليكم . ولا تفرضوا أنفسكم على مَنْ يرحّب بكم ، بل اتركوا ذلك المكان فوراً وتابعوا طريقكم ! » .

ويبدو أنهم لبثوا فترة بسيطة غائبين ثم عادوا سريعاً إلى يسوع .

وفي أحد الأيام وجد يسوع نفسه بين جماعة من الفريسيين ومعلمي

(٥٠) عند روك ، تشكل هذه الجملة خلاصة مثل الزرع الجيد والزؤان .
(٥١) لوقا ٨ : ١٩ .
(٥٢) لوقا ٨ : ٢٢ ؛ مرقس ١٤ : ١٣ .
(٥٣) لوقا ٨ : ٣٧ .
(٥٤) لوقا ٩ .

الشريعة الآتين من أورشليم[٥٥] . فدهش هؤلاء لأن تلاميذ يسوع جلسوا إلى المائدة بأيدٍ نجسة ، أي غير مغسولة . لأن اليهود لا يأكلون إلّا بعد أن يغتسلوا جيداً ، جرياً على أمرٍ يستند إلى التقليد ، وعليهم أيضاً أن يغسلوا بالماء كل الكؤوس وسائر الأواني ، والكراسي والمقاعد قبل كل وجبة . فقال الفريسيون ليسوع :

« لماذا لا يجري تلاميذك على أوامر آبائنا ، فيجلسون إلى المائدة بأيدٍ غير مغسولة ؟ » .

فأجاب يسوع :

« ما قيل في أحد كتبكم المقدسة ينطبق عليكم تماماً : « هذا الشعب يكرّمني بالشفاه ، أمّا قلبه فبعيد عني ، وعبادته باطلة ، لأنها ليست سوى مراعاة للقواعد التي لا مرجع لها » . أنتم لا تكرّمون الوصية الالهية ، ولكنكم تتمسكون حرفياً بالعادات البشرية ، كتبريك الأكواب والكراسي وسواها بالماء . إنكم مصيبون بهذا . فأنتم تنقضون وصية إلهية لكي تبقوا مخلصين لأنظمة كنيستكم . هذا هو الناموس : « أكرمْ أباك وأمك . ومَنْ تلفّظ بكلمة قاسية نحو أبيه أو أمه يجب أن يُقتل » . ولكنكم أنشأتم ناموساً آخر ؛ فإذا قال أحدكم لأبيه أو أمه في صورة الغضب : « إن ما أستطيع أن أقدمه لكم من خدمات ومال سأقدمه « إلى الهيكل » ، تعتبرون أنه بهذا العمل قد أخذ نذراً بألاّ يقدم لهم أية منفعة ، وتتهمونه بارتكاب الخطيئة إذا قدّم لأمه أو أبيه أية خدمة . وهكذا تنقضون وصية إلهية بوصايا من عندكم . ولديكم الكثير من الأنظمة على هذا النمط » .

ثم خاطب يسوع الجمع المحيط به :

« اصغوا إليّ وافهموا ما أقول : ما من مادة طبيعية ، وما من شيء يتناوله الانسان من الخارج يمكن أن ينجسه ، ولكن ما يفعله الانسان ، وما

(٥٥) مرقس ٧ .

يخرج من فمه ، هو الذي يدلّ ما إذا كانت نفسه طاهرة أو نجسة » .

وأراد تلاميذ يسوع لفت انتباهه إلى كون الفريسيين قد غضبوا لهذا الكلام . فقال :

« دعوهم يحنقون ، أن مثل هذه الأعشاب الصادرة عن الانسان يجب أن تُستأصل . إنهم عميان يقودون عمياناً . وأريد أن أنتزع من الشعب هؤلاء القادة العميان . وإلاّ فإنه سيسقط في الحفرة مع أولئك الذين وثق بهم » .

ولمّا تفرّقت الجموع وعاد يسوع إلى المنزل ، طلب منه أصدقاؤه أن يفسِّر لهم ما قاله للشعب حول الأشياء الطاهرة والنجسة . فأجابهم :

« حتى أنتم لم تتوصلوا بعد إلى فهم هذا الأمر ؟ ألا تفهمون أن ما يدخل فم الانسان يتحول في معدته وأمعائه ثم يُطرح خارجاً ؟ وأن الأشياء التي تخرج من القلب ، كالكلمات والأفعال ، تأتي من نفس الانسان ، وهي التي يمكن أن تكون طاهرة أو قذرة ، مقدسة أو نجسة . فمن النفس تولد الأفكار الشريرة والقتل والزنى والسرقة وشهادة الزور والافتراء والحسد والكبرياء وحياة الفجور والبخل . وهذه الشرور هي التي تنجس الانسان ، وليس كونه قد نسي بالصدفة أن يبارك يديه بالماء قبل أن يجلس لتناول الطعام » .

واقترب عيد المظال[٥٦] عند اليهود ، فألحّ عليه اقرباؤه أن يرافقهم إلى أورشليم حتى تكون حلقة الذين يعرفونه ويستمعون إليه أوسع مما هي في المدن والقرى الجليلية . فأجابهم يسوع أن الوقت ليس مناسباً لذلك ، ودعاهم إلى الذهاب ، لأن البشر لم يبغضوهم مثله ، فهو قد شهد امام اليهود أن سلوكهم فاسد وأعمالهم شريرة . ولكن بعد بضعة أيام من مغادرة أقارب يسوع الجليل ، ذهب هو أيضاً إلى أورشليم ، إنما في الخفية . وهناك

---

(٥٦) يوحنا ٧ .

أخذ الناس يسألون عنه ، لأنهم كانوا ينتظرونه كيهودي . وكان حكم الشعب عليه ، وخاصة الجليليون ، مختلفاً ، فقال بعضهم انه رجل صالح وآخرون رأوا فيه مضلِّلاً . ولكن الجليليين لم يتحدثوا عنه جهاراً خوفاً من اليهود .

وفي انتصاف العيد ذهب يسوع إلى الهيكل وأخذ يعلّم . فتعجّب اليهود ، لأنهم يعلمون أنه غير متعلّم . فأجابهم :

« ليس مذهبي من اختلاق البشر ، حتى يحتاج المرء إلى تعلمه بالجهد من الآخرين . فمن ينوي اتباع ناموس الخلقية الأصيل ، دون أحكام مسبقة ، يمكنه أن يتحقق للحال ما إذا كان مذهبي من اختلاقي . مَن يسعى إلى مجده الخاص ، فمن المؤكد أنه سيقيم وزناً كبيراً للنظريات والوصايا البشرية . أمّا الذي يسعى حقاً إلى مجد الله فيكون من الصراحة بما يكفي لأن يطرح الاختلاقات التي أضافها البشر إلى الناموس الخلقي ، أو التي أحلّوها محله ! أنا أعلم أنكم تكرهونني وتسعون إلى قتلي لأنني أعلنت أنه يمكن شفاء مريض يوم السبت . لقد سمح لكم موسى أن تختنوا الانسان يوم السبت . فكم هو أعظم أن نعيد له صحته » .

وكان أناس من أورشليم يسمعونه ، فبدا من أحاديثهم أنهم سمعوا كلاماً عن عزم المجمع الكبير على التخلّص منه . ودهشوا لتكلّمه جهاراً وبحرية دون أن يمدّ أحد يده إليه ، وإنْ كانوا عازمين على ذلك . فالماسيّا الذي ينتظره اليهود ليجدد عظمة عبادتهم الالهية ويُعيد استقلال مملكتهم لا يمكن بالتأكيد أن يكون يسوع ، لأنهم يعرفون جيداً من أين هو ، أما ماسيّا فيجب أن يظهر فجأة حسب النبوءات .

وهكذا ، فإن ما واجه يسوع دائماً هو الأحكام المسبقة لليهود ، فإنهم قلّما طمحوا إلى معلم يسعى إلى جعل سلوكهم أفضل وإلى تحريرهم من أحكامهم المسبقة المناقضة للخلقية . لقد أرادوا ماسيّا يحررهم من الخضوع للرومان ، فلم يجدوه في يسوع .

ونقل خدم أعضاء المجمع الأعلى إلى هؤلاء أن يسوع في الهيكل. فأنّبوهم لأنهم لم يلقوا القبض عليه. فاعتذروا بقولهم إنهم لم يسمعوا إنساناً يتكلم مثله، فلم يتجاسروا على الامساك به. فقال لهم الفريسيون: «كيف هذا؟ يبدو أنه ضلّلكم أنتم أيضاً! هل رأيتم فريسياً أو أحد أعضاء المجمع يكترث له؟ إنه لا يستطيع أن يضلّل سوى أولئك الرعاع الذين يجهلون شريعتنا».

فذكّرهم نيقوديموس، وهو الذي جاء قبلاً إلى يسوع في الليل، أنه بحسب الشريعة لا يمكن إدانة أحد قبل سماعه، ودون أخذ معلومات دقيقة عن أعماله، فاتهموه بأنه هو الآخر تابع للجليلي - مع أنه لا يمكن أن يكون أي نبيّ من أصل جليلي.

ويبدو أنهم لم يأخذوا قراراً قطعياً بموضوع يسوع، فارفضّ المجمع من جديد.

وأمضى يسوع ليلته في جبل الزيتون[٥٧]، وربما في بيت عنيا الواقعة على سفح ذلك الجبل، حيث يوجد بعض معارفه. ثم عاد إلى المدينة والهيكل. وبينما هو يعلّم فيه، أتاه بعض معلمي الشريعة والفريسيين بامرأة أُخذت بجريمة الزنى. فأقاموها في الوسط ليحاكموها. وشرحوا حالها ليسوع قائلين إن شريعة موسى أمرت برجمها، وسألوه رأيه. وأدرك يسوع نيتهم في نصب فخ له. فتظاهر بأنه لم يسمع شيئاً. وانحنى يخط باصبعه على الرمل بعض الصور. فلمّا ألحّوا في معرفة رأيه، نهض وقال لهم: «مَنْ يعلم منكم أنه بلا خطيئة، فليرمها بالحجر الأول!» ثم أخذ يخطّ رسوماً في الرمل من جديد. فلمّا سمع معلمو الشريعة جواب يسوع انسحبوا بسرعة واحداً بعد الآخر، فبقي يسوع وحده مع المرأة. ثم نهض فلم يجد أحداً سواها، فسألها: «أين هم متهموك، أفلم يدنك أحد منهم؟».

(٥٧) يوحنا ٨.

فقالت: «أبداً».

فأجاب يسوع: «وأنا أيضاً لا أدينك. الوداع، ولا تعودي إلى الخطيئة مستقبلاً».

وفي مرة أخرى[٥٨]، كان يسوع يحادث الشعب في الهيكل، فسأله الفريسيون عن البرهان الذي يستطيع أن يقدمه إلى نفسه وإلى الآخرين حتى يؤكد صحة مذهبه التعليمي. فقد كانوا ينعمون بالسعادة لامتلاكهم دستوراً وشرائع مؤكدة باعلانات رسمية من الإله. فأجابهم يسوع[٥٩]:

«أتعتقدون أن الإله قد رمى الجنس البشري في العالم، وعهد به إلى الطبيعة، دون أي ناموس، ودون أي شعور بالهدف الأسمى لوجوده، ومن غير أن يكون بامكانه أن يجد في نفسه الطريقة التي يرضي بها الإله[٦٠]؟ أو ربما تعتقدون أن معرفة الشرائع الأخلاقية مسألةُ حظ، وأنها قد أُعطيت لكم وحدكم، في هذه البقعة من الأرض، دون أن يدري أحد لماذا، فحصرت فيكم من بين كل أمم الأرض؟ ضيق فكركم الأناني هو الذي يوهمكم بذلك. أمّا أنا فلم أصغِ إلاّ إلى الصوت الصادق لقلبي وشعوري. ومَنْ يستمع له بعناية تنيره الحقيقة الكامنة فيه. انصتوا إلى هذا الصوت، فهذا هو الأمر الوحيد الذي أطلبه من تلاميذي. هذا الناموس الداخلي هو ناموس الحرية، الذي يقدّم الانسان ذاته له، ويخضع له بحرية حرية. إنه أزلي، وعليه يستند الاحساس بالخلود. ومن أجل الواجب الذي يحتم علي أن أنقل هذا الناموس إلى ضمير البشر، أنا على وشك ترك الحياة، مثل الراعي الأمين الذي يموت فداء عن قطيعه. يمكنكم أن تأخذوا حياتي لا أن تنتزعوها، لأني أنا نفسي أضحي بها طوعاً. أنتم عبيد لأنكم واقعون تحت

(٥٨) يوحنا ٨ : ١٢ - ٢٠ .

(٥٩) يوحنا ٨ : ٢١ - ٣٠ .

(٦٠) قال غوته: «كل إنسان يستطيع سماعه.... إذا كان نبع الحياة يجري صافياً في باطنه» (ملاحظة لهيجل).

نير الناموس الذي فُرض عليكم من الخارج ، ولهذا السبب هو عاجز عن انتزاعكم من خدمة نوازعكم باحترام أنفسكم » .

إن الترحيب الذي لقيه يسوع في أورشليم[٦١] ، وتصرف اليهود العدواني ، وخاصة الكهنة الذين اتخذوا قراراً بأن يحرموا كل مَنْ يعتبر يسوع مسيّا المنتظر ، وأن يقصوه عن الاشتراك في العبادة الالهية والتعليم الرسمي[٦٢] ـ وهو الأمر الذي جعل يسوع يتجنّب تقديم نفسه للشعب علناً[٦٣] ـ هذا التصرف العدواني أعطاه احساساً مسبقاً بالعنف (وربما الموت) الذي سيعانيه فيما بعد ، فنقل هذه الأفكار إلى تلاميذه .

فقال بطرس : « نرجو ألاّ يحصل شيء من هذا ، لا سمح الله » .

فأجاب يسوع : « كيف تقول هذا ، هل أنت ضعيف حتى تعذّر عليك التهيؤ لذلك ، أو تظن أنني غير مستعد له ؟ أنت ما زلت تفكر بحواسك ! وتجهل أيضاً القدرة الإلهية التي تفرض احترام الواجب ، وتتغلب ، بحب الواجب ، على مقتضيات النوازع ، وحتى على محبة الحياة ! » .

ثم توجه إلى التلاميذ الآخرين قائلاً :

« مَنْ يرغب في اطاعة الفضيلة يجب أن يعرف كيف يلزم نفسه بالفقر . ومَنْ يرغب في أن يبقى مخلصاً للفضيلة بطريقة راسخة ، يجب أن يكون مستعداً لتكريس كل شيء ، حتى حياته ، من أجلها ! مَنْ يحب حياته الخاصة يفسد نفسه . ومَنْ يحتقر حياته ، يبقى مخلصاً لأناه الفضلى ويخلّصها من متطلبات الطبيعة ـ أية قيمة تبقى للانسان ، إذا ربح العالم كله وأذلّ أناه من أجل ذلك ؟ وأي ثمن يمكن أن يكون معادلاً للفضيلة المفقودة ؟ سيأتي

(٦١) لوقا ٩ : ٢١ وما يليها .
(٦٢) يوحنا ٩ : ٢٢ .
(٦٣) يختلف نص نول عن نص روك تماماً . فعند نول : (تجنب يسوع تقديم . . . .) . أمّا عند روك : (قدّم يسوع نفسه . . . .) .

يوم يشعّ فيه المضطَهَد بمجده ، والعقل المستقر في حقوقه يحدد لكل انسان مكافأة أعماله » .

وبعد اقامة طالت أكثر من المعتاد (لأن يسوع بقي في أورشليم من عيد المظال حتى عيد التجديد في كانون الأول)[٦٤] رجع لآخر مرة إلى مكان اقامته المعتاد في الجليل[٦٥] . ويبدو أنه لم يعلّم في هذه الفترة أمام الجموع كما في السابق[٦٦] ، بل انصرف أساساً إلى تثقيف تلاميذه .

وفي كفرناحوم[٦٧] طُلبت منه الضريبة السنوية المخصصة للهيكل . فقال لبطرس وهما عائدان إلى البيت : « ماذا تقول يا بطرس ، أيأخذ ملوك الأرض الضريبة من أبنائهم أم من الآخرين ؟ » .

فأجاب بطرس : « من الآخرين » .

فقال يسوع : « إذاً فالبنون معفون . ونحن الذين نعبد الله حسب الروح الحقيقية ، يجب ألاّ نساهم مطلقاً في نفقات الهيكل الذي لا نحتاجه من أجل عبادة الله ، لأننا نسعى إلى عبادته بالسلوك الحسن ، وعلى أية حال ، ادفعْ لهم عنا ، كي لا يستاؤوا ، وحتى لا نبرهن عن احتقار لما يعتبرونه مقدساً » .

وقام جدال بين تلاميذ يسوع حول مكانة كل منهم في مَلكوت الله يوم تجليه[٦٨] . لأنهم لبثوا يقرنونه بأفكار من عالم الحواس ، ولم يتحرروا بعد من التصور اليهودي لمملكة أرضية ، ولم يدركوا بطريقة خالصة أن ملكوت الله هو مملكة الخير ، حيث لا سلطان لغير العقل والناموس . واستمع يسوع إلى هذا الجدل وهو حزين . ثم دعا طفلاً وقال لتلاميذه :

(٦٤) يوحنا ١٠ : ٢٢ .
(٦٥) متى ١٧ : ٢٢ .
(٦٦) مرقس ٩ : ٣٠ .
(٦٧) متى ١٧ : ٢٤ ـ ٢٧ .
(٦٨) لوقا ٩ : ٤٦ ـ ٥٠ .

« إذا لم تتغيروا وتعودوا إلى براءة هذا الطفل وصفائه وبساطته ، فأنتم لستم من مواطني ملكوت الله . مَنْ يخطأ إلى الآخرين(٦٩) ، حتى إلى طفل كهذا ، ويظن أن بامكانه أن يسمح لنفسه بأي أمر ضدهم ، ويعتقد أن لديه سلطة ليعاملهم بلا مبالاة ، هو مذنب . أمّا الذي يجرح قداسة البراءة ويسيء إلى طهارتها ، فمن الأفضل له أن يُعلّق في رقبته حجر رحى ويُرمى في البحر ! ليست الاساءات إلى النفس الطاهرة قليلة في هذا العالم ، ولكن ويلٌ للانسان الذي يتسبب في مثل تلك المعثرة . انتبهوا جيداً كي لا تحتقروا أحداً ، وخاصة بساطة القلب : فهي الزهرة الأكثر رقة ونبلاً في الانسانية ، إنها أصفى صورة للألوهة . وهي وحدها التي تمنح المكانة الرفيعة ، بل أرفع مكانة . هذه البساطة تستحق أن يُضحّى في سبيلها بكل ما تقوم به أعزّ ميولكم ، وبكل احساس بالخيلاء والطمع ، أو الحشمة الكاذبة ، وبكل الاعتبارات النفعية أو المغرية .

« الزهو بارتفاعكم فوق الآخرين لن يستولي عليكم إذا نزعتم إلى البساطة ، وإذا علمتم كيف تقدّرون الكرامة التي من أجلها وُجد كل إنسان ، والتي هي في مستطاع كل إنسان . وكذلك إذا فكرتم أخيراً أنه مثلما لا يمكن أن تكون الأشجار ذات مظهر واحد(٧٠) ، فإن مَنْ ليس ضدكم ، حتى مَنْ تحتاجه الانسانية حقاً ، هو معكم ، رغم كونه صاحب طبائع وعادات مختلفة ـ فهذه أمور غير مهمة .

« أمّا إذا كنتم تعتقدون حقاً أن ثمة أشياء مفقودة ، فلا تظهروا احتقاركم ، بل ابذلوا جهداً لاصلاحها ، ولاعادة البشر إلى طريق الفضيلة . أفلا تعتقدون أن الراعي الذي يضلّ خروف واحد من خرافه المئة يقطع الجبال من أجل استعادة الخروف الضال ؟ وإذا وجده ، أفلا يشعر بفرح

(٦٩) نول : (يحس) . روك : (يخطأ) . ولكن معنى الجملة يدل على أن روك هو المصيب .

(٧٠) انظر ليسينج ، ناثان الحكيم ٤ ، ٤ (ملاحظة لهيجل) .

أعظم مما يحسه لأن التسعة والتسعين لم تضلّ ؟

« ولكن إذا أساء إليك أحد ، فاسع إلى مصالحته ، دعه يفسّر سلوكه واتفق معه . فإذا استمع إليك ، فإنها تكون غلطتك إذا لم تستطع الاتفاق معه . وإذا لم يستمع إليك فاصطحب معك شخصين لازالة الخلاف . فإذا لم ينجح ذلك اعرض دعواك على عدد من الوسطاء . فإذا لم يمدَّ يده من أجل مصالحتك ، وإذا كنت من جهتك قد فعلت كل ذلك ، تجنّبه ولا تعد إلى مخالطته . إن الإهانات والمظالم التي يسامح البشر بعضهم بعضاً عنها ويستدركونها ، هي أيضاً مغفورة في السماء . وعندما تتوحّدون بروح المحبة والمصالحة ، يهيمن عليكم الروح الذي أريد أن أحييه فيكم » .

وهنا سأله بطرس(٧١) : « كم مرة يجب أن أسامح الانسان الذي يسيء إليّ ويتسبب في إيذائي ؟ حتى سبع مرات ربما ؟ » .

فأجابه يسوع : « أتعتقد أن ذلك كثير ؟ إني أقول لك : سبعون مرة سبع مرات . فاسمعْ هذه القصة :

« أراد أمير أن يحاسب خدمه . وكان على أحدهم عشرة آلاف وزنة . ولم يكن هذا المبلغ بحوزته . فأمره أن يبيع كل ما يملك ، وأن يبيع حتى زوجته وأولاده كعبيد ، ليسدِّد دينه . فانطرح الخادم على قدميه ، وناشده الصبر وتأجيل الموعد ، لأنه يريد أن يدفع كل شيء . فرقّ سيده لحاله وأعفاه من دينه كله .

« ولمّا خرج ذلك الخادم من عند سيده لقي خادماً من رفاقه ، وكان له عليه مئة دينار (مبلغ يقل عن المبلغ السابق بنسبة واحد إلى أكثر من مليون) . فعنّقه وأجبره بقسوة على تأدية الدين . ولم ينصت إليه لمّا جثا على ركبتيه ورجاه أن يمهله ، بل وضعه في السجن إلى أن يقضي الدين . فاستاء الخدم الآخرون مما حصل أمامهم ، وأخبروا الأمير .

(٧١) متى ١٨ : ٢١ ـ ٣٥ .

« فدعا الخادم القاسي وقال له :

« أيها الانسان القاسي القلب ، لقد أعفيتك من دينك الكبير لأنك سألتني . أفما كان يجب عليك أنت أيضاً أن تشفق على الآخر كما رحمتك أنا ؟ خذوه ! » .

« ثم أمر الأمير بوضعه في السجن إلى أن يؤدّي ما عليه .

« ترون في هذا المثل أن روح المصالحة هي الدليل على نقاوة الشعور التي لا تقبل الألوهة المقدسة سواها ، لأن لها كمال القيمة ، أمّا الأعمال فغالباً ما تكون غير كاملة : أنتم ترون أن هذه الروح هي الشرط الوحيد الذي يمكّنكم من أن تأملوا في أن تعفيكم العدالة الأزلية مما تستحقونه من عقاب ، جزاء سيرتكم السابقة ؛ والشرط لتصيروا بشراً آخرين بتغيير روحكم » .

وقرر يسوع أن يعود إلى أورشليم مجدداً ، عن طريق السامرة[٧٢] . فأرسل بعضاً من رفاقه ليتقدموه ويعدّوا الاحتياجات في إحدى القرى . ولمّا علم السامريون أنه قرر الذهاب إلى أورشليم من أجل الفصح ، لم يرغبوا في استضافته ، ورفضوا حتى مروره في قريتهم . فخطر لبعض رفاق يسوع الطلب إلى السماء أن ترسل صواعقها على تلك القرية . فالتفت يسوع نحوهم ساخطاً وقال :

« أهذا هو الروح الذي يحرككم ، روح الانتقام ؟ حتى إذا تطوعت قوى الطبيعة لخدمته ، استعملها ليقتص[٧٣] من سوء اللقاء بالتدمير ! فليكنْ هدفكم بناء مملكة الخير لا التدمير » . ثم عادوا من طريق أخرى .

وبينما هم سائرون ، عرض أحد معلمي الشريعة أن يرافق يسوع على الدوام[٧٤] . فقال له يسوع :

(٧٢) لوقا ٩ : ٥١ .
(٧٣) نول : (اقتصّ) . روك : (انتقم) .
(٧٤) لوقا ٩ : ٥٧ .

« فكّر في الأمر جيداً : إن للثعالب أوكرة وللطيور أعشاشاً . أمّا أنا فلا أستطيع أن أقول عن أي مكان أنه مكاني الخاص أو أن رأسي يمكن أن يرتاح فيه » .

ثم أخذ يسوع طريقاً أخرى أطول قليلاً للذهاب إلى أورشليم[٧٥] . وكان يرسل دائماً اثنين من مرافقيه ليتقدموه ويعلموا الناس بقدومه ، لأن عدد تابعيه كان كبيراً . وأعطاهم توجيهات تتعلق بسلوكهم أثناء الرحلة . فإنهم يجب ألّا يسعوا إلى اغتصاب الحفاوة حيث لا يريدون استقبالهم ، بل عليهم متابعة طريقهم ، وأن يكون هدفهم الأساسي في كل مكان حثّ الناس على الخير . « ثمة أعمال كثيرة هنا ، ولكن العمال قليلون ! » .

وأخبره التلاميذ أنهم وجدوا استقبالاً طيباً هنا وهناك[٧٦] . ولدى سماعه هذا الخبر قال ما يلي :

« فلتكن مسبحاً وممجداً يا أبا السماء والأرض ، لأن تمييز كل إنسان للواجب لا يتم بموهبة العلم والمعرفة ، ولأن كل قلب غير فاسد يمكنه أن يشعر من ذاته بالفارق بين الخير والشر . واحسرتاه ! ليت الناس وقفوا عند هذا الحد فلم يختلقوا علاوة على الواجبات التي يفرضها العقل ، نصيباً من الأعباء[٧٧] الأخرى ليعذبوا الانسانية البائسة ! تلك الأعباء التي تصير نبع الكبرياء ، فلا يعرف أحدٌ أن يجد لها إرضاء إلّا على حساب الفضيلة » .

وأثناء الرحلة التقى يسوع أحد معلمي الشريعة ، فأراد الأخير محادثته ليعرف مبادئه ويمتحنها . فقال :

« يا معلم ، ماذا عليّ أن أفعل لأستحق السعادة القصوى ؟ » .

فسأله يسوع : « بماذا تأمرك الشريعة ؟ » .

(٧٥) لوقا ١٠ .
(٧٦) لوقا ١٠ : ١٧ وما يليها ؛ متى ١١ : ٢٥ ـ ٣٠ .
(٧٧) نول : (اعباء) . روك (عيوب) .

فأجاب : « أن تحب الإله بكل نفسك ، لأنه مثال القداسة ، وأن تحب قريبك حبك لنفسك » .

فقال يسوع : « بالصواب أجبت . افعلْ هذا فتستحق السعادة القصوى » .

وأراد معلم الشريعة أن يثبت أن هذه الاجابة لم تُرْضِ أعماق روحه ، فقال :

« إن هذا يتطلّب توضيحاً . فمَنْ هو بالتحديد[٧٨] هذا القريب الذي نؤمر بمحبته ؟ » .

فقال يسوع : « سأشرح لك ذلك بقصة :

« كان رجل ذاهباً من أورشليم إلى أريحا . وكانت طريقه تمر في صحراء غير آمنة . فوقع في أيدي اللصوص الذين سلبوه وضربوه وتركوه هناك نصف ميت . وما كادوا ينتهون من جريمتهم حتى اتفق أن مرّ أحد الكهنة في الطريق عينها . فرأى الجريح ، ولكنه تابع طريقه . ومرّ أيضاً لاويّ في تلك الطريق دون أن تأخذه الشفقة عليه . ولكن سامرياً مرّ من هناك فاشفق عليه حالما رآه ، فاقترب منه وضمّد جراحه ، وصبّ عليها إضافة إلى ذلك زيتاً وخمراً . ثم حمله على بغله ونقله إلى أحد الفنادق ، حيث تركه ليعتنوا به . وفي الغد ، قبل أن يتابع طريقه ، أعطى صاحب الفندق بعض المال للانفاق على الاسعافات التي ما يزال المريض بحاجة إليها . ودعاه إلى عدم الاقتصاد في المعالجة إذا تعدّت النفقات ذلك المبلغ ، لأنه سيدفعها إليه عند عودته .

« فقلْ لي الآن ، أي هؤلاء الثلاثة هو الذي تصرّف كقريب لهذا البائس ؟ وأيّهم هو الذي اعتبره قريباً ؟ » فقال معلم الشريعة :

(٧٨) كلمة (بالتحديد) لا توجد عند روك .

« الذي عامله برحمة » .

فقال يسوع : « وأنت أيضاً اعتبر كلَّ مَنْ يحتاج إلى نجدتك ورحمتك قريباً لك ، مهما كان قومه ومعتقده ولونه » .

ولكن الفريسيين، العاجزين عن إدراك مذهب يسوع التعليمي[٧٩] ، لأنه يضع نصب أعينهم قصور طريقتهم الشرعية المحضة في التصرف إذا ما قورنت بالخلقية ، طلبوا منه مراراً ، كشهادة على تعليمه الذي يدحض قيمة شرائعهم ، ظاهرة جوية خارقة ، شبيهة بالتي كان يهوه يؤكد بواسطتها اعتلانه المهيب . فأجابهم يسوع :

« في المساء تقولون : « غداً سيكون الطقس جميلاً ، لأن الشمس حمراء في الشفق » . ولكن إذا كانت شمس الصباح حمراء مغبرّة ، فإنكم تتنبأون بالمطر . وهكذا تعرفون منظر السماء فتتكهنون بالجو الذي سيكون ، أمّا علامات الزمن الحاضر فلا تعرفون تقديرها . أفلا تلاحظون أن حاجات سامية قد اتضحت في الانسان ، وأن العقل قد استيقظ ؟ وأن العقل يعترض على مذاهبكم التعليمية وتشريعاتكم التعسفية ، وعلى احتقاركم للفضيلة وللمصير النهائي للانسان بأن تخضعونها لمذاهبكم وتشريعاتكم . إن العقل سيعترض على الاكراه الذي تريدون بواسطته الاحتفاظ بسلطة إيمانكم ووصاياكم على شعبكم ! لن تُعطى لكم آية سوى آية المعلمين[٨٠] الذين يمكنكم أن تتعلموا منهم ما يمكن استخدامه من أجل خيركم الأعظم وخير الانسانية » .

ودعاه أحد الفريسيين[٨١] إلى الغداء عنده . وتعجّب لأن يسوع لم

(٧٩) لوقا ١١ : ١٦ ؛ متى ١٦ : ١ .
(٨٠) نول : (معلمين) ؛ روك : (مذاهب) .
(٨١) لوقا ١١ : ٣٧ ؛ متى : ٢٣ .

« أخصبت أرض رجل غني إلى حد جعله يرتبك من كثرة الغلة . فاضطر إلى توسيع أهرائه لجمعها . ففكر في نفسه : « عندما تنتظم الأمور ، احفظي كل المحصول بعناية ، وهكذا تعيشين في غنى لسنين عديدة . فاستريحي إذاً وكلي واشربي وتنعّمي » .

« ولكنه سمع في تلك اللحظة صوت الموت : « يا جاهل ، في هذه الليلة ستطلب منك نفسك ، فلمَنْ تجمع هذا كله ؟ » .

« وكذلك مَنْ يكتز كنوزاً ولا يفكّر في غنى ومصير هدفها خالد ، فإنه يبذل مجهوداً باطلاً من أجل هدف مبتذل . لا يكن الاهتمام بالغنى هو المالىء نفسكم ، ولتكنْ روحكم مكرَّسة للواجب وحده ، وعملكم لمملكة الخير !

« كونوا مستعدين كرجال تسلحوا للحياة وللموت ! وإلاّ ، فإن محبة الحياة ستسلح الموت ضدكم بالرعب ، والخوف من الموت سيسرق منكم حياتكم . لا تؤجلوا ، ولا تعتقدوا أن ليس ثمة ما يستحثكم على تكريس أنفسكم للغايات السامية ، بدل تلك الغايات القائمة على تكديس الكنوز والعيش من أجل اللذات . كل لحظة تتملصون فيها من خدمة الخير هي لحظة مفقودة من مصيركم .

« أو أن الموت يفاجئكم ، فتشبهون الوكيل الذي أمّنه سيده الغائب على العناية ببيته أثناء غيابه . فيفكر الوكيل : إن سيدي سيبقى غائباً مدة طويلة . ويبدأ في إساءة معاملة الخدم والعيش في الفسق والسكر . ولكن سيده يفاجئه في اللحظة التي لم يكن يتوقعها ، فيعاقبه بما يستحق .

« وكما أن الخادم الذي يعلم مشيئة سيده ، ولا ينفذها ، يُعاقَب بقسوة تفوق عقوبة مَنْ يتصرف تصرفاً مذنباً دون أن يعلم مشيئة سيده ، فكذلك يطلب الكثير من الانسان الذي يوثق به ، وتكون لديه الموهبة والظروف الملائمة لفعل الخير الكثير .

« أتتصورون أني جئت لأدعوكم إلى التمتع بالحياة في هدوء ؟ أو أن المصير الذي انتظره لنفسي وأرغب فيه ، هو مستقبل خال من الاهتمامات وسعيد ؟ لا ، إن الاضطهاد هو نصيبي ، ونصيبكم أيضاً ! الخلاف والمنازعة هما محصلة مذهبي التعليمي . ذلك الصراع بين الرذيلة والفضيلة ، بين التعلق بالاعتقادات والعادات التقليدية للإيمان ، التي أنشأتها سلطة ما في أدمغة البشر وقلوبهم ، وبين العودة إلى الخدمة المتجددة للعقل المستقر في حقوقه ، هذا الصراع سيفرّق أصدقاء وعائلات ، وسيكون فخراً لنخبة البشر .

« ولكنه سيكون مميتاً ، إذا وضع أولئك الذين هدموا ما هو قديم لأنه يقيم عقبات أمام حرية العقل وينجس منابع الخلقية ، إذا وضعوا مكانه إيماناً مفروضاً ومقيداً بالحرف ، مما يحرم العقل مجدداً من حقه في أن يستمد الناموس من ذاته ، وأن يؤمن به بحرية ، وأن يخضع له . واحسرتاه ! هذا الصراع سيكون مميتاً إذا سلموا هذا الإيمان الموصى به بالسيوف وبالواجب الظاهري ، أو إذا حرّضوا الآباء على الأبناء والأخوةَ على الأخوة والأمهات على بناتهنّ ، أو إذا جعلوا الانسانية خائنة لذاتها ! » .

وروي ليسوع حدثٌ حصل في ذلك الزمان[86] ومفاده أن بيلاطس ، الوالي الروماني على اليهودية ، قتل عدداً من الجليليين الذين كانوا في سبيلهم إلى تقديم الذبائح ، دون أن تُعرف الأسباب . وكان يسوع قد أَلِفَ طريقة تفكير تلاميذه[87] الذين رأوا في مرة سابقة أحد العميان ، فاستنتجوا للحال أن هذا الأعمى أو أحد أقاربه يجب أن يكون مجرماً كبيراً . فوجد يسوع في هذا الحدث مناسبة للعظة التالية :

« أتظنون أن هؤلاء الجليليين هم أكثر أبناء شعبهم خطيئة حتى كابدوا هذا المصير ، أو أن أولئك الثمانية أو العشرة الذين سحقهم برج سلدام مؤخراً ، هم أكثر سكان أورشليم فساداً ؟ لا . فاصدار حكم دون شفقة

(٨٦) لوقا ١٣ .

(٨٧) يوحنا ١١ .

على بشر حصل لهم مثل هذا الشقاء ، ليس الجهة المناسبة التي يجب أن تتأملوا منها هذا الحدث . ولكن ، إذا انتزعكم هذا الحدث من الهدوء الذي تستسلمون إليه ، ومن رضاكم عن نفسكم ، فيجب أن تبدأوا بضميركم ، وتتساءلوا بكل أمانة ما إذا كنتم تستحقون مصيراً كهذا ؟ اسمعوا القصة التالية :

« زرع صاحب كرم شجرة تين . وكان كلما أتى ليقطف بعض الثمار لا يجد شيئاً . فقال للبستاني : « منذ ثلاث سنوات وأنا آتي إلى هذه الشجرة عبثاً ، اقطعها حتى نستعمل الأرض التي تحتلها استعمالاً أفضل » .

« فأجابه البستاني : « اتركها هذه السنة أيضاً ، حتى اقلب الأرض حولها واسمِّدها . وآمل أن تعطي ثمراً حينئذٍ . فإذا لم تعطِ ، اقطعها » .

« المصير المستحقّ ينتظر طويلاً في الغالب ، فيتيح للشرير فرصة إصلاح نفسه ، وللمتكاسل فرصة التدرب على معرفة غايات سامية . فإذا ترك هذه المدة تنقضي ، وهو غير مبال ، يفاجئه مصيره ويقع عليه العقاب » .

وتابع يسوع طريقه نحو أورشليم ، وكان يتوقف هنا وهناك حيث يجد فرصة لاعطاء الناس بعض التعاليم الطيبة . وفي هذه الرحلة طُرح عليه سؤال عمّا إذا كان عدد الذين سيخلصون قليلاً ؟ فأجاب :

« فليكافح كل منكم حتى يجد الطريق الضيق لطريقة العيش الطيبة . كثيرون يسعون ولا يجدونه . إذا أقفل سيد البيت بابه ، وقرعتموه وصرختم حتى يفتح لكم ، فإنه يجيبكم : « أنا لا أعرفكم » . لقد أكلتم وشربتم معه في الغالب ، واستمعتم إلى تعليمه . ولكنه يجيبكم :

« صحيح أنكم أكلتم وشربتم معي واستمعتم إليّ عندما كنت أعلِّم . ولكنكم فسدتم ، وأنا لا أعرفكم بين أصدقائي . اذهبوا من هنا ! » .

« إن كثيراً من الذين في المشرق والمغرب وفي الشمال والجنوب ، الذين

يعبدون زوساً أو براهما أو فودَن ، سيجدون نعمة امام قاضي العالم ، وكثيرون من الذين يفاخرون بمعرفتهم الله ، ويشوهون هذه المعرفة السامية أمام الاخرين بطريقة حياتهم ، ويظنون أنهم الأولون ، سيكونون ملعونين » .

وحذّر بعض الفريسيين يسوع ودعوه إلى مغادرة مقاطعة هيرودوس لأنه يريد أن يقتله ـ وليس معلوماً إذا كانوا قد فعلوا ذلك بنيّة طيبة أو لمخطط آخر . فأجابهم يسوع إن طبيعة أعماله لا يمكن أن تسبب أي قلق لهيرودوس ، وأكثر من ذلك ، إنه لأمر شاذ ألاّ تكون أورشليم ، وهي المسرح المعتاد لموت كثير من المعلمين الذين حاولوا شفاء الشعب اليهودي من تعنته في أحكامه المسبقة وشعوذاته التي كان يضحي في سبيلها بكل قواعد الخلقية والحكمة ، ألاّ تكون أورشليم المكان الذي يجب أن يصيبه فيه مثل هذا المصير .

وعاد مجدداً إلى تناول الطعام عند أحد الفريسيين[88] ولاحظ مسارعة البعض هناك إلى المقاعد الأولى ، واعتقادهم أنها يجب أن تتغيّر بحسب طبقتهم . فلفتهم إلى أن المسارعة إلى التدافع من أجل الأماكن الأولى يمكن أن تصبح في الغالب سبباً للفوضى . لأنه إذا جاء شخص من طبقة أرفع ، فيجب أن يرضى الجالس بترك مقعده وتغييره وهو في ارتباك وعلى العكس ، فإن مَنْ يجلس في المقعد الأخير ، سيدعوه المضيف إلى الصعود إلى مقعد أعلى ، فيعظم شأنه . وعلى العموم فإن مَنْ يرفع نفسه يتضع ، وبالعكس فإن المتواضع يُرفع .

ولفت مضيفه إلى أن يدرك أنه إلى جانب الاستضافة القائمة على دعوة أقاربه وأصدقائه وجيرانه الأغنياء ، الذين يستجيبون في العادة إلى مثل هذه الدلالة على المحبة بدعوات مماثلة ، ثمة استضافة أكثر نبلاً : وهي إطعام المرضى والمساكين والتعساء الآخرين الذين لا يسعهم إعادة الحسنة إلاّ

(٨٨) لوقا ١٤ .

بتعبيرهم غير المصطنع عن عرفانهم بالجميل وإحساسهم بالبؤس الذي وُجد مَنْ يؤاسيه ، وبالشعور الذي تمنحه مثل هذه الأعمال ، كسكب البلسم على جروح التعساء وتعزية البؤس .

فقال أحد المدعوين : « طوبى لمَنْ يكون أحد هؤلاء ، فإنه من مواطني ملكوت الله ! » .

فشرح يسوع هذا المفهوم لملكوت الله بمَثَل الأمير[٨٩] الذي أراد الاحتفال بزفاف ابنه بمأدبة فاخرة ، فدعا كثيراً من الضيوف . وفي يوم الاحتفال أرسل خدمه إلى المدعوين ، ليطلبوا منهم الحضور لأن المأدبة بانتظارهم .

فاعتذر الأول عن عدم المجيء بأن عنده حقلاً يجب أن يزوره . والثاني بأنه قد اشترى خمسة أزواج من الثيران ويجب أن يجربها . أمّا الثالث فبرَّر غيابه بالزواج الذي أقدم عليه . وآخرون عاملوا الخدم باحتقار ، فلم يحضر أحد من المدعوين .

فغضب الأمير وأمر خدمه بالذهاب إلى الشوارع والساحات العامة في المدينة ، ودعوة الفقراء والعميان والمشوهين وكل مَنْ أصيب بعاهة ما ، لأن المصاريف قد أنفقت ، ففعل الخدم . وبقيت بعض المقاعد فارغة . فأرسل الأمير خدمة مجدداً ليفتشوا في الطريق وعلى طول الأماكن المسيجة ، وأن يأتوا بكل مَنْ يصادفونه هناك ، حتى يمتلىء البيت .

« وكذلك ملكوت الله .

« إن الأهداف الحقيرة بالنسبة إلى الكثيرين ذات أهمية تفوق أهمية دعوتهم السامية . والكثيرون ممَنْ وضعتهم الطبيعة أو الحظ في وسط دائرة السلطة العليا ، يدعون فرصة عمل الخير العميم تفوتهم ، بطريقة لا تُغتفر .

(٨٩) متى ٢٢ .

وغالباً ما تكون الاستقامة منفية في الأكواخ الحقيرة أو متروكة للعقول المحدودة . القيام بالتضحيات من أهم المميزات الأساسية لمواطن مملكة الله .

« مَنْ يعتبر أن الابن أو الأخ أو الزوج أو الأب ، والسعادة أو الحياة ، أعزْ من الفضيلة ، مثل هذا ليس مؤهلاً لأن يعبِّد لنفسه طريقاً نحو الكمال أو لأن يقود الاخرين فيها . فمَنْ يريد العمل من أجل الآخرين يجب أن يفحص قواه أولاً ليرى إذا كان قادراً على ذلك .

« وكما أن الانسان الذي يبدأ ببناء منزله ، دون أن يحسب الكلفة كلها مسبقاً ، يضطر إلى أن يترك البناء ناقصاً ويصبح سخرية للناس ؛ وكما أن الأمير قبل أن يقدم على الاشتباك مع الأمير الاخر ، يفحص قواته ، فإذا لم يجدها بمستوى قوات الأمير الآخر ، يسعى إلى الصلح معه ، فكذلك حال مَنْ يرغب في تكريس نفسه لاصلاح البشر ، يجب أن يفحص أولاً ما إذا كان خليقاً بأن يتخلى ، في هذا الكفاح ، عن كل ما يقدّم له بعض المتعة » .

وهنا أيضاً حنق الفريسيون[٩٠] لوجود العشارين والخطأة بين المستمعين إلى يسوع ، دون أن يطردهم . فقال يسوع :

« إذا ضاع خروف من قطيع الراعي ، أفلا يُحس بالفرح عندما يجده ؟ وإذا أضاعت امرأة قطعة من النقود ، أفلا تبحث عنها بعناية ؟ وعندما تجدها ، أفلا تكون سعادتها بالقطعة المستعادة أعظم من سعادتها بالقطع الأخرى التي لم تضعها ؟ أفلا يحس البشر الصالحون بفرح مماثل إذا رأوا أحداً من البشر الضالين عائداً إلى الفضيلة ؟ أريد أن أروي لكم قصة :

« كان لرجل ابنان ، فطلب أصغرهما نصيبه من الميراث ، فقسمه الوالد بينهما . وبعد بضعة أيام جمع الابن الأصغر أمواله وسافر إلى بلد بعيد حتى يستطيع التمتع بها بحرية وحسب ميوله . وهناك انفق ثروته كلها في

(٩٠) لوقا ١٥ .

حياة الفجور . فأصابه البؤس الذي زادت منه مجاعة كبيرة حصلت هناك . وأخيراً وجد لنفسه مكاناً عند رجل أرسله إلى الحقول ليرعى الخنازير ، فاضطر إلى أن يقتسم وإيّاها الغذاء المؤلف من البلوط . وذكّره مصيره الحزين بمنزل والده . وقال في نفسه : « كم يفضلني أُجَراءُ أبي الذين لا ينقصهم الخبز أبداً ، أمّا أنا فاهلك من الجوع . أريد أن أعود إلى أبي واعترف له : يا أبتاه ! لقد خطئت إلى السماء وإليك ، ولست مستحقاً أن أدعى لك ابناً . فاقبلني كبعض اجرائك ! » .

« ثم نفّذ ما فكر فيه . ورآه أبوه قادماً من بعيد ، فركض نحوه وألقى بنفسه على عنقه وأخذ يقبله . فقال ذلك التاعس التائب :

« واحسرتاه ، أن خطاياي تجعلني غير مستحق أن أُدعى لك ابناً » .

« ولكن الأب أمر خدمه أن يقدموا للابن اجمل ثوب وأن يعطوه حذاء . وقال : « اذبحوا العجل المسمّن . فإننا نريد أن نفرح جميعاً ، لأن ابني الذي كنت اعتبره ميتاً قد عاش . إنه كان ضالاً فوجد ! » .

« وفي هذا الوقت عاد الابن الأكبر من الحقول . وما كاد يقترب من المنزل حتى سمع الفرح الصاخب ، وسأل عمّا حدث . فلما أخبره أحد الخدم غضب ، وأبى أن يدخل إلى المنزل . فخرج الأب وألحّ عليه أن يدخل . لكن الابن رفض أن يسمع شيئاً وقال :

« إنا عندك منذ سنين ، اعمل من اجلك وانفذ ارادتك في كل شيء ، ولم تعرض عليّ مرة أن أتلهى مع أصدقائي . ويكفي أن يأتي هذا الابن ، الذي بدّد ثروته مع البغايا ، حتى تقيم له مأدبة ! » .

« فقال الأب : « يا بني ، أنت معي دائماً ، ولا يعوزك شيء ، وكل ما هو لي فهو لك . يجب أن تفرح وتغتبط لأن أخاك الذي كان ضالاً قد وجد نفسه ، والذي تخلينا عنه قد تعافى » .

وفي مناسبة أخرى لا نعرفها ، روى يسوع لأصدقائه القصة التالية :

« كان لرجل غني وكيل[٩١] . فنقل إليه أنه يبذر الأموال التي أمّنه عليها . فدعاه سيده وقال له :

« ما هذا الذي اسمعه عنك ! أدِّ حساب وكالتك ، فلا يصح أن تكون لي وكيلاً بعد اليوم » .

« ففكر الوكيل في ما عليه أن يفعله ؛ فإنه فقد عمله ، ولا يقوى على العمل كأجير ، ويستحي من الاستعطاء . وأخيراً وجد وسيلة للتخلص من الورطة ، بأن يجعل من مديني سيّده أصدقاء له حتى يقبلوه لديهم عندما يضطر إلى ترك عمله . فدعاهم واحداً بعد الآخر .

« وأعطى الأول الذي كان عليه مئة برميل زيتاً ، صكاً بخمسين برميلاً فقط . وجعل دين الآخر ثمانين مداً حنطة بدلاً من مئة . وهكذا فعل مع الآخرين . فلما علم السيد بذلك فيما بعد ، اعترف للوكيل الخائن بذكائه . ذلك أن البشر الشرفاء غالباً ما يتفوّق عليهم الخبثاء ، لأن دهاء هؤلاء لا يجعلهم يترددون في خيانة الأمانة .

« إنني استخلص لكم من هذه القصة النصيحة التالية : استخدموا فكركم الثاقب ، واستعملوا المال الذي يمكن أن يكون لديكم من أجل اتخاذ أصدقاء من البشر ، وخاصة من التعساء . إنما ليس على حساب الاستقامة كما فعل هذا الوكيل الخائن . فمَنْ لا يكون أميناً على القليل لن يكون أميناً على الكثير . وإذا لم تتمكنوا من الاستقامة في مسائل المال ، فكيف ستكونون عندما يتعلق الأمر بالصالح الانساني الأسمى ؟

« إذا تمسكتم بشيء ، وتعاطيتم معه وكأنكم غرباء ، إلى درجة نسيان الفضيلة بسببه ، فماذا ينتظر منكم أن تفعلوا أكثر من ذلك ؟ لا تجعلوا هدف حياتكم الأسمى العمل لمصلحتكم والخدمة الفضيلة ، لأنهما أمران متناقضان » .

---

(٩١) لوقا ١٦ .

وكان بعض الفريسيين يستمعون إلى كل ذلك وهم من محبي المال ، فسخروا من يسوع لانتقاصه من قيمة الغنى إلى هذا الحد . فالتفت يسوع نحوهم وقال :

« أنتم تدأبون لكي تظهروا أمام عيون البشر بمظهر القداسة ، ولكن الله يعلم ما في قلوبكم . من يظهر عظيماً ومُعتبراً استناداً إلى رأي الحواس ، سيتلاشى في عجزه التام أمام الله .

« كان رجل غني يلبس الأرجوان والحرير ، ويصنع كل يوم الكثير من الطعام الفاخر . وأمام بابه كان يجلس في الغالب فقير يدعى لعازر ، وجسده مريض ومليء بالقروح . ولم يكن أحد يخفف عنه . وكانت الكلاب تأتي أحياناً فتلحسه . ويفرح إذا استطاع تسكين جوعه بفتات مائدة الغني . ومات المسكين ، وهو يسكن الآن في مقام السعداء . وبعد ذلك مات الغني فدفن بأبهة .

« ولكن نصيب الفقير لم يكن نصيبه . وعندما رفع عينيه وشاهد لعازر عند إبراهيم ، صرخ : « ارحمني يا ابتِ ابراهيم ، وأرسل لعازر ، فما يعزّيني في عذابي سوى تلطيف الآلام ، كما يُبرِّد المحموم بقطرة ماء » .

« فأجابه إبراهيم : « تذكر يا بنيّ أنك نلت نصيبك من الخير في الحياة الأخرى ، أمّا لعازر فقد نال الشقاء . إنه يتعزّى الآن ، أمّا أنت فتتعذّب » .

« فقال : « أسألك إذاً يا ابتِ أن ترسله إلى بيت أبي ، لأن لي خمسة أخوة ، فليخبرهم بما حلّ بي ولينذرهم حتى لا ينالوا هم أيضاً مصيراً كهذا » .

« فقال إبراهيم : « إنهم يمتلكون ناموساً في عقلهم . وعندهم تعليم البشر الصالحين ، فليستمعوا إليهم » .

« فقال الشقيّ : « هذا لا يكفيهم . ولكن إذا خرج إنسان من القبر

وتراءى لهم ، فانهم يصيرون أخياراً بالتأكيد » .

« فأجابه إبراهيم : « ما أُعطي للانسان هو ناموس عقله . ولن تبلغ إليه أية معرفة أخرى ، لا من السماء ولا من القبر ، لأنها تتعارض مع روح ذلك الناموس الذي يفرض خضوعاً حراً وليس خضوعاً عبودياً ، مغتصباً بالخوف » .

وفي مناسبة أخرى ، مجهولة أيضاً[٩٢] ، طلب أصدقاء يسوع منه أن يعزّز شجاعتهم وثباتهم . فأجاب :

« لا شيء يمكنه أن يفعل ذلك سوى التفكير في واجبكم وفي الهدف الأسمى وفي المصير المعطى للانسان . وبهذه الطريقة لا تعتقدون مطلقاً أنكم قد بلغتم نهاية عملكم ، فحقٌّ لكم أن تتمتعوا منذ الآن . فعندما يعود الخادم من الحقول إلى المنزل لا يقول له سيّده : « إذهب الآن وارح نفسك » ، بل « حضِّر لي طعامي الآن واخدمني ، وبعد ذلك تأكل أنت » . وعندما يفعل الخادم ذلك ، لا يعتقد سيده أن عليه أن يشكره على ما قام به .

« وكذلك أنتم ، فعندما تفعلون ما يجب عليكم أن تفعلوه ، لا تقولوا : « لقد فعلت أكثر من الضروري ، ومرَّ زمن العمل الان ، ويجب أن يبدأ زمن الراحة » ، بل قولوا : « إننا لم نفعل سوى واجبنا » .

ومرةً أخرى سأل الفريسيون ـ الذين لا يستطيعون التحرر من تصورهم الحسيّ لملكوت الله ـ سألوا يسوع الذي كان يتكلم دائماً على هذه الفكرة : « متى سيأتي ملكوت الله ؟ » .

فأجابهم : « إن ملكوت الله لن يظهر بأبهة أو بعلامات خارجية . ولا يمكن أن يقال : « أنظر ، إنه هنا أو إنه هناك » ، لأن ملكوت الله يجب أن يؤسس في داخل نفوسكم » . ثم توجه إلى تلاميذه :

(٩٢) لوقا ١٧ : ٥ .

« أنتم أيضاً ترغبون دائماً في رؤية ملكوت الله مقاماً على الأرض . وغالباً ما يُقال لكم أن ثمة أخوية سعيدة مماثلة قائمة هنا أو هناك بين أشخاص يخضعون لناموس الخلقية . لا تركضوا وراء مثل هذه السرابات . ولا تنتظروا رؤية ملكوت الله في وحدة خارجية مشرقة بين بعض البشر تحت شكل دولة ، ولا في أي مجتمع تحت سيطرة الشرائع العسامة لاحدى الكنائس . فليست هذه الحالة الهادئة والمشرقة هي مصير مواطني ملكوت الله الحقيقيين الفاضلين ، بل الاضطهاد الذي يأتي غالباً من أشخاص مثل اليهود الذين يفاخرون بكونهم من مواطني مثل ذلك المجتمع .

« فأي شخصين يشهران الايمان نفسه ، وينتميان إلى الكنيسة ذاتها ، يمكن أن يكون أحدهما صالحاً والأخر سافلاً . فلا تستمروا في التعلق بالشكل الخارجي ! لا تتركوا أنفسكم تنزلق إلى طمأنينة متوانية ، بشعوركم أنكم بمراعاتكم الدقيقة للشكل تؤدون واجبكم ، وبهذا تجد محبة الحياة واللذة شبعها . فمَنْ لم يكن قادراً على التضحية بهذا الحب من أجل الواجب ، يكون بذلك قد جعل من نفسه غير مستحق للواجب .

« وكما أن المثابرة يجب ألاّ تفارقكم(٩٣) إذا رأيتم أن آمالكم باكتساب الخير بالنضال لم تتحقق خلال فترة طويلة ، فيؤدي ذلك إلى قراركم أن تسبحوا مع التيار الكليّ للفساد ، لأنكم مرهقون ومتكدرون ، وكما أن استقامة القاضي ليست هي التي تجعل أحد أتباعه مفضلاً لديه ، بل رغبته في التخلص من طلباته الملحة ، فكذلك أنتم أيضاً تصنعون الخير الكثير بمثابرتكم . فإذا أدركتم بكل نفسكم عظمة الهدف الذي يحدده الواجب ، فإن جهودكم ، مثل الهدف ، تستمر إلى الأبد ولا تضعف مطلقاً ، سواء أرأيتم نضوج الثمار في هذه الحياة أم لم تروها ! » .

ولأجل الفريسيين الذين يعتقدون أنهم كاملون ، فيحتقرون البشر الأخرين بسبب هذا الادعاء ، روى يسوع القصة التالية :

(٩٣) لوقا ١٨ .

« ذهب رجلان إلى الهيكل للصلاة ، أحدهما فريسي والاخر عشار . فصلّى الفريسي بصوت مرتفع قائلاً :

« أشكرك اللّهم على أنني لست كسائر الناس ، لا كهذا العشار ، لصاً أو ظالماً أو زانياً . فأنا أصوم في الأسبوع مرتين ، واشترك في الخدمة الإلهية بانتظام ، وأؤدي العشر لهيكلك بنزاهة » .

« أمّا العشّار فوقف بعيداً عن هذا القديس ، ولم يجرؤ على رفع عينيه نحو السماء ، بل كان يقرع صدره ويصلي بحرارة :

« اللّهم ، ارحمني أنا الخاطىء ! » .

« أقول لكم إن هذا عاد إلى منزله وقد نال ضميره تعزية أكثر من الفريسي » .

وجاء أحد الوجهاء الشبان إلى يسوع وقال(٩٤) :

« أيها المعلم الصالح ، ماذا يجب أن أفعل لأكون فاضلاً ، واستحق أمام الله السعادة القصوى بعد هذه الحياة ؟ » .

فأجابه يسوع : « لِمَ تدعوني صالحاً ؟ فلا صالح سوى الله . أنت تعرف جيداً الوصايا التي يلقنها معلموكم : « لا تزن ، لا تقتل ، لا تشهد بالزور ، اكرمْ أباك وأمك » .

عند ذاك اجابه الشاب :

« لقد راعيت ذلك منذ صباي » .

فقال يسوع : « حسن ، ولكن إذا احسست أن باستطاعتك أن تفعل أكثر من ذلك ، فاستعمل غناك في نجدة الفقراء ، وحثّ على الخلقية ، وكن مساعداً لي في ذلك » .

(٩٤) لوقا ١٨ : ١٨ .

فحزن الشاب عند سماعه هذا ، لأنه كان غنياً جداً . فلاحظ يسوع ذلك وقال لتلاميذه :

« ما أعظم القوة التي تورّط بها محبة المال الانسان في حبالها ! وما أثقل القيد الذي تكبّل به الفضيلة ! الفضيلة تقتضي التضحيات ، ومحبة المال تطلب دائماً مكاسب جديدة . تلك تتطلب أن نضع حداً لطموحاتنا ، وهذه .تريد أن توسع وتزيد في ملكيتها » .

فسأله أصدقاؤه :

« ولكن كيف يمكن أن نأمل ألاّ تجعل نزعة الطبيعة الانسانية هذه الخلقية مستحيلة ؟ » .

فأجاب يسوع :

« إن تناقض هذه النزعات أُلغي عندما اعطى الله إحداها سلطة تشريعية محضة تأمر بالواجب : هذه السلطة تسعى إلى أن تصبح متفوقة ، والله أعطاها القوة لأن تصبح كذلك » .

فقال بطرس ، أحد أصدقاء يسوع :

« أنت تعلم أننا قد تركنا كل شيء حتى نركن إلى تعليمك ، ونكرّس أنفسنا للخلقية وحدها » .

فقال يسوع : « لأجل كل ما تركتموه ، فإن الشعور الذي اكتسبتموه بعيشكم من أجل الواجب الوحيد يكون تعويضاً نفيساً لكم ، في هذه الحياة وفي الأبدية كلها » .

ووصل يسوع إلى ضواحي أورشليم[٩٥] مع تابعيه ، وهم الاثني عشر الذين اختارهم . فاطلعهم على احساساته الداخلية الكئيبة عن الطريقة التي

(٩٥) لوقا ١٨ : ٣١ ؛ متى ٢٠ : ١٧ .

سيستقبل ويعامل بها في أورشليم ، تلك الاحساسات المتناقضة تماماً مع اعتقاد تلاميذه بما سيحصل سواء حين وصوله إلى أورشليم أو إبّان اقامته فيها .

فحتى هؤلاء التلاميذ الذين نعموا برفقة يسوع يوماً بيوم وسمعوا تعليمه ، كانوا يعلّلون النفس في رؤوسهم اليهودية بأن يسوع سيظهر علناً أمام الشعب كملك ، فيعيد بريق الدولة اليهودية واستقلالها عن روما . وأنه سيعوض الحرمان الذي كابدوه ، بصفتهم مساعديه وأصدقاءه ، باعطائهم سلطة ومجداً . ولم يكونوا قد أخمدوا هذه الآمال بعد . ولم يتكيفوا مع المعنى الروحي للملكوت الله باعتباره سيادة القوانين الخلقية على البشر .

ودنت أم يوحنا ويعقوب من يسوع وارتمت على قدميه . فلمّا سألها عن حاجتها ، ظنت أنها اقتربت ، وولديها ، من تحقيق أمانيهم ، فطلبت منه :

« عندما[٩٦] تنشىء مملكتك ، ارفع ابنيّ إلى المقام الذي يأتي بعد مقامك مباشرة » .

فأجابهم يسوع :

« إنكم لا تعرفون ما تسألون . هل أنتم مستعدون للحياة من أجل الواجب الذي اضطلعتم به لاصلاح البشر ، ومقاسمتي مصيري ، مهما يكن ؟ » .

فأجابوا وهم يعتقدون أن هذا المصير لا يمكن أن يكون إلا مصيراً مشرقاً :

« أجل ! نحن مستعدون ! » .

فقال يسوع :

(٩٦) نول (عندما تنشىء) . روك : (إذا انشأت) .

« قوموا بواجبكم إذاً ، واخضعوا بهدوء لمصيركم . ولكن لا تنتظروا رؤية آمالكم التي اظهرتموها محققة . فلا يحدد قيمتكم أمام الألوهة سوى طهارة عواطفكم المكشوفة أمام الله ، وليس أمامي » .

وغضب التلاميذ الآخرون لطلب الأخوين . فحذّرهم يسوع قائلاً :

« أنتم تعلمون أن الرغبة في السيطرة شهوة مليئة بالاغواء ، وشائعة بين البشر . وهي تتجلّى في أوسع حلقات الحياة وأضيقها على السواء ! فلتكنْ مقصاة عن جماعتكم ! تمسكوا بمحبة بعضكم بعضاً ، وخدمة بعضكم لبعض ، كما أن هدف حياتي لم يكن مطلقاً أن آمر الآخرين ، بل أن أخدم الانسانية ، إلى درجة التضحية بحياتي من أجلها » .

ورغب رفاقه في أن يعرفوا ما إذا كان سيعطيهم نصيباً بارزاً من سلطانه الذي أصبح وشيكاً ، بسبب صداقته لهم وعطفه عليهم ، فحدثهم عن اختلاف قيمة البشر بالمثل التالي :

« ذهب أحد الأمراء إلى بلد بعيد ليتولى الحكم . وقبل أن يغادر البلد الذي كان سيّده سابقاً ، عهد إلى خدمه بعشر وزنات حتى يتاجروا بها . وأرسل أهل بلده في اثره وَفْداً ليقول له إنهم لن يعترفوا بامارته عليهم . ورغم ذلك فإنه حفظ العرش بعد رجوعه ، ثم طلب من خدمه أن يؤدوا الحساب عن المال الذي عهد به إليهم . فقال الأول :

« لقد ربحت عشر وزنات بالوزنة التي سلّمتها إليّ » .

فأجابه الأمير : « جيّد ، لقد أحسنت ادارة القليل الذي اعطيتك ايّاه ، أريد أن اقيمك على الكثير ، فأعهد إليك بحكم عشر مدن » .

وربح الثاني بالوزنة خمس وزنات ، فأقامه على حكم خمس مدن . وقال خادم آخر :

« إنني أعيد إليك الوزنة دون أن أفقدها . لقد حفظتها بعناية ، وخفت

أن أجازف بها هباءً . فأنت سيّد قاسٍ ، تريد أن تأخذ ما لم تستودع ، وتحصد ما لم تزرع » .

فأجابه الأمير : « إن تبريرك يدينك . فما دمت تعلم أنني رجل قاس ، وأنني أريد أن أحصد ما لم أزرع ، فلماذا لم تعط أموالك لبعض الصيارفة ؟ حتى يمكنك أن تعيده إليّ مع الفائدة . لقد فقدت مالك ، ويجب أن يكون لمَنْ ربح الوزنات العشر » .

فتعجب الخدم الآخرون لرؤيتهم صاحب الوزنات العشر يأخذ هذه الوزنة أيضاً .

ولكن الأمير قال لهم : « مَنْ يحسن استعمال ما يُعهد به إليه يُعطى المزيد أيضاً . أمّا الذي يسيء استعماله ، أو الذي لا يستعمله على الاطلاق ، فيكون بعمله هذا غير مستحق لما أُعطي له . والآن ، أحضروا أمامي أولئك الذين رفضوا اطاعتي حتى أعاقبهم » .

وكما فعل هذا الأمير ، فإن الله يحكم في قيمة البشر بحسب استعمالهم المخلص للقوى التي اعطيت لهم ، واطاعتهم للقوانين الخلقية التي يجدون أنفسهم خاضعين لها .

وهنا أيضاً (وكان يسوع في أريحا التي تبعد عن أورشليم مسيرة ست ساعات) أظهر الفريسيون من جديد استهجانهم لنزول يسوع في منزل أحد العشارين . وكان اسمه زكّا . فقد رغب في الاقتراب من يسوع ، ولكنه لم يتمكن بسبب الجمع ولأنه قصير القامة ، فصعد إلى شجرة . وفوجيء بالتكريم الذي خصّه به يسوع عندما اختار منزله للاستراحة . واستطاع أن يتصور الفكرة التي سيكوِّنها يسوع عنه ، بما أنه علم المهنة التي مارسها حتى ذلك اليوم ، وشعر أنه قد يظهر له بمظهر ليس في صالحه ، فأعلم يسوع أنه قد أصلح طريقة تفكيره ، وقال له :

« سأعطي الفقراء نصف الثروة التي أملكها ، وإذا كنت قد استغللت

أحداً ، فسأصلح الضرر أربعة أضعاف » .

فأبدى يسوع ارتياحه لعودته إلى الاستقامة ، وأظهر له أن هدفه على الأرض هو قيادة البشر في هذا الطريق .

واقترب عيد الفصح[٩٧] ، فكان معظم اليهود موجودين في أورشليم . وأقام يسوع بضعة أيام بالقرب منها ، في مدينة تُدعى افرام ، وفي بيت عنيا بالتحديد[٩٨] .

وأثناء احدى وجبات الطعام التي أعدت هناك ، حضرت امرأة تدعى مريم ، وهي صديقة يسوع ، فدهنت قدميه بطيب غالي الثمن ثم مسحتهما بشعرها . ولاحظ يهوذا ، احد رسل يسوع ، وهو الذي يدير مال الجماعة ، أنه كان من الأفضل بيع هذا الطيب وتوزيع ثمنه على الفقراء . وكان يأمل في وضع هذا المال في كيسه ، لأنه ما كان لينسى نفسه حين توزيعه على الفقراء . ولكن يسوع لفته إلى عدم إحزان قلب مريم بتأنيبها ، فقد لمس في عملها تعبيراً عن صداقتها ، لأن هذا العمل كان شبيهاً باظهار المحبة نحو الأموات بتحنيطهم . أمّا يهوذا فبامكانه أن يظهر في كل مناسبة هذه الرحمة التي يدعيها نحو الفقراء .

وفي هذه الأثناء[٩٩] كان المجمع الكبير ، الذي ينتظر قدوم يسوع إلى العيد مثل سائر اليهود ، قد اتخذ قراراً بالقاء القبض عليه في تلك المناسبة والعمل من أجل الحكم عليه بالموت . ولكنهم قرروا تأجيل ذلك إلى ما بعد العيد ، خوفاً من أن يحاول مواطنوه الجليليون ، الحاضرون هناك ، اطلاق سراحه . واتخذ المجمع الكبير ترتيباته حتى يكون مستعداً[١٠٠] في اللحظة

---

(٩٧) يوحنا ١١ : ٥٤ .
(٩٨) يوحنا ١٢ .
(٩٩) متى ٢٦ : ٣ .
(١٠٠) يوحنا ١١ : ٥٦ ـ ٥٧ .

التي يُشاهد فيها يسوع في الهيكل . لكن المكلّفين بمراقبته كانوا مرتبكين لأنهم لم يروه في أيام العيد الأولى .

وبعد ستة أيام من هذه المأدبة وصل يسوع إلى أورشليم ، وما أن تبينّ المدينة حتى دمعت عيناه ، فقال :

« ليتكِ فهمتِ ما هو المفيد لخلاصكِ ! ولكنه حجب عنكِ ، لأن كبرياءك واصرارك على أحكامك المسبقة وتعصبك ستحرض اعداءك ضدك . وسيحاصرونك ويطبقون عليك من كل جانب ، إلى أن تهدم دولتك ودستورك ، وهما سبب كبريائك ، وتدفنين تحت ركامهما ، دون أن تنالي الاحساس والمجد بأنك قد متِّ في دفاع نبيل عن شيء عظيم وخيِّر » .

وكان يسوع صاعداً على حمار حسب عادة الشرقيين فجاءه جمع من الناس الذين يعرفونه ، ورافقوه وأغصان الزيتون بأيديهم . فدخل المدينة وسط أغانيهم وتهليلاتهم .

ولم يبق يسوع ليلاً في أورشليم بل في بيت عنيا[١٠١] . ولكنه عاد في الصباح إلى أورشليم ، وظهر أمام الشعب في الهيكل حيث أخذ يعلم .

وسعى أعداؤه إلى توريطه بأسئلة محرجة . وكان قصدهم أن يجدوا حجة ليشكوه[١٠٢] من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، أن يجعلوا الشعب يكرهه ، وهو الأمر الذي لم يكونوا مطمئنين إليه . وزاد من مخاوفهم الاستقبال الكبير الذي لقيه عند وصوله إلى المدينة .

ففي أحد الأيام ، وهو واقف في الهيكل يعلّم جمعاً من المستمعين ، سألوه عن السلطة التي بموجبها سمح لنفسه أن يعلم الشعب ؟ فأجابهم يسوع :

---

(١٠١) متى ٢١ : ١٧ .
(١٠٢) لوقا ٢٠ .

« اسمحوا لي ، عوضاً عن الجواب ، أن أسألكم سؤالاً آخر : هل كانت حماسة يوحنا للحقيقة والفضيلة هي السبب الذي دفعه إلى التعليم ، أم أنه تبع بتعليمه أهدافاً أنانية ؟ » .

ففكر الذين سألوه :

« إذا أجبنا عن السؤال الأول بالإيجاب ، فإن يسوع سيسألنا : « فلماذا إذاً لم تستمعوا إليه ؟ » وإذا أجبنا بالإيجاب عن السؤال الثاني فإننا نثير الشعب ضدنا » . فقالوا انهم لا يعلمون .

فقال لهم يسوع : « وأنا أيضاً لا أستطيع أن أجيب عن سؤالكم . ولكن احكموا أنتم :

« كان لرجل ابنان ، فقال للأول أن يذهب إلى الكرم ويعمل فيه[١٠٣] فقال انه لن يذهب . ولكنه ندم ثم ذهب إلى الكرم . وقال للثاني مثل ذلك . فأبدى للحال همّة ووعده بالذهاب . ولكنه لم يذهب . فأيهما أظهر طاعة لأبيه ؟ » .

فقالوا : « الأول » .

فأجابهم يسوع : « وكذلك أنتم . فثمة بشر معروفون بكونهم فاسدي الخلق ، ولكنهم أصغوا إلى صوت الفضيلة عندما دعاهم يوحنا ، وهم يفوقونكم الآن بمشاعرهم الطيبة ، أنتم اللاهجين دائماً باسم الله والمدّعين أنكم لا تعيشون إلّا من أجل عبادته » .

ثم روى لهم يسوع قصة ثانية :

« غرس رجل كرماً عظيماً ، وسيّجه بالجدران وحصّنه ، وسلّمه إلى بعض الكرامين ليحرثوه ثم ذهب . وفي الخريف أرسل خدمه لأخذ نصيبه مما

(١٠٣) متى ٢١ : ٢٨ .

أنتجه الكرم . ولكن الكرّامين أساؤوا معاملتهم غاية الاساءة . وكذلك كان نصيب الجماعة الثانية التي أرسلها صاحب الملك . فأرسل ابنه آملاً أن يحترمه الكرامون . ولكن هؤلاء فكروا في أنه الوريث ، وأنهم بموته يضعون يدهم على الملك كله . فقتلوه . وهنا سأل يسوع الذين حوله : ماذا يفعل صاحب الكرم .

فقالوا : « يعاقب الكرّامين بالقسوة التي يستحقونها ، ويعطي الكرم لكرّامين آخرين يقدمون إليه الثمر كما ينبغي » .

فقال يسوع : « وهكذا اليهود ، فقد أتيح لهم قبل سواهم من أمم الأرض ، أن ينالوا المفاهيم الصحيحة للألوهة ، ولمشيئتها بالنسبة إلى البشر . ولكنهم لم يقدموا الثمار التي تجعل الانسان مقبولاً أمام عيون الآلهة . ولهذا يستحيل أن تعتقدوا أنكم المفضلون عند الإله ، بسبب هذه الأقدمية وحدها . ولهذا أيضاً ، فمن الجريمة أن تسيؤوا إلى البشر الذين يشعرون أو يقولون لكم إن ثمة أموراً أسمى من هذه ، وهي التي تمنح الانسانَ قيمة حقيقية » .

وكاد أعضاء المجمع الذين أعطوه هذه الفرصة لتوبيخهم ، أن يلقوا أيديهم عليه لولا خوفهم من الشعب .

وكان بعض اليهود اليونانيين[١٠٤] قد جاؤوا أيضاً من أجل العيد ، وأرادوا مخاطبة يسوع . ويبدو أنهم توجهوا إلى بعض أصدقاء يسوع حتى يطلبوا منه أن يحادثهم . ولم يبدِ يسوع أي فرح ، لأنه ظنّ أنهم قد أتوا بالافكار اليهودية المعتادة عن الماسيّا ، وأنهم يريدون أن يتوسلوا إليه مسبقاً ، بصفته ملك اليهود وسيّدهم العتيد . فقال لتلاميذه في تلك المناسبة :

« يخطىء هؤلاء الناس إذا توهموا أنني أطمح إلى الظهور بمظهر الماسيّا كما يتصورونه هم ، ويخطئون إذا اعتقدوا أنني أطلب أن يخدموني ، أو أنني

(١٠٤) يوحنا ١٢ : ٢٠ .

ساغترّ إذا تقدموا لزيادة حاشيتي . نكون أخوة ، ومن جماعة واحدة ، إذا أطاعوا قانون عقلهم المقدس . وإذا اعتقدوا أن هدفي هو المجد والقوة ، فإنهم يتجاهلون المصير الأسمى للانسان ، أو يتصورون أنني أتنكر له . فكما أن البذرة الموضوعة في الأرض تموت أولاً ، حتى تصعد نواتها في ساق ، كذلك أنا أيضاً ، لا أطلب أن أعيش حتى أرى الثمار التي يهدف إليها عملي ، وكذلك روحي ، فهي لم تنجز مصيرها في غشاء هذا الجسد .

« هل يجب أن أخون ما أعلم أنه هدفي ، حتى أحفظ هذه الحياة ؟ إنني أتأمل بحزنٍ النزعاتِ التي تتجه إليها مخططات موجهي هذا الشعب : إنهم يريدون انتزاع حياتي . فهل يجب عليّ ، من أجل هذا الأمر ، أن أرغب أو أن أطلب من الله : « أبتِ ، أنقذني من هذا الخطر » ؟ لا ، لأن حماستي في دعوة البشر إلى الخدمة الحقيقية للألوهة والفضيلة ، هي التي تضعني في هذا الموقف ، وأنا مستعد للخضوع إلى كل التبعات التي يمكن أن تنتج .

« أفهذا يناقض مرة أخرى توقعكم أن ماسيّا الذي تنتظرونه يجب ألاّ يموت ؟ وهل الحياة ، بحد ذاتها ، أمر عظيم الشأن في نظركم ، والموت أمر مرعب جداً ، حتى أنكم لا تستطيعون التوفيق بين الموت وبين فكرتكم عن رجل يستحق احترامكم ؟ ولكن هل أطلب الاعتبار لشخصي ؟ وهل أطلب الإيمان بي ؟ أو هل أريد أن أفرض عليكم معياراً للقياس حتى تميزوا قيمة البشر وتحكموا عليهم ، وكأنه اختلاق مني ؟ لا ، إن احترامكم لأنفسكم ، والإيمان بالناموس المقدس لعقلكم ، والاصغاء إلى صوت الحكم الداخلي لنفوسكم وإلى صوت الضمير ، والمقياس الذي يكون هو نفسه مقياس الألوهة ، هذه الأمور هي التي أريد أن أوقظها فيكم ! » .

وأرسل الفريسيون وأتباع هيرودوس بعض الناس إلى يسوع ليدخلوا معه في حوار يمكن أن يقدّم حجة للادعاء عليه أمام السلطة الرومانية[105] . وحتى ندرك كم كان السؤال خداعاً ، وبأية بساطة يمكن أن يجرح يسوع

(١٠٥) لوقا ٢٠ : ٢٠ .

بجوابه السلطة الرومانية والاحكام المسبقة لليهود في آنٍ ، يجب أن نتذكر طريقة التفكير اليهودية التي تعتبر ان دفع الجزية لأجنبي أمرٌ لا يُطاق ، لأنهم يريدون أن يدفعوا لإلههم وللهيكل .

فقال المرسلون :

« يا معلم ، إننا نعلم أنك صادق في ما تقول ، وأنك تتقيّد بالحقيقة الصارمة ، ولا تحابي أي إنسان في ما تقول . فقلْ لنا : هل يحق أن ندفع الجزية للامبراطور الروماني ؟ » .

وعلم يسوع مخططهم ، فقال :

« أيها المراؤون ، إلاّمَ تسعون ، أإلى نصب فخ لي[106] ؟ أروني ديناراً ! لمَنْ هذه الصورة ؟

فأجابوا : « للامبراطور » .

فقال يسوع : « حسناً ، إذا كنتم تسلّمون للامبراطور النقود التي تستعملونها ، فأدّوا إذاً للامبراطور ما هو للامبراطور ، ولإلهكم ما تستلزمه عبادته » .

فاضطروا إلى الاكتفاء بهذا الجواب الذي لم يمنحهم أي مأخذ عليه .

وأراد الصدوقيون ، وهم طائفة من اليهود لا تؤمن بخلود النفس ، أن يجرِّبوا بدورهم آراءهم ضد يسوع . فقالوا له :

« إذا مات إنسان دون أن يترك ولداً ، يجب على أخيه ، حسب شرائعنا ، أن يتزوج أرملته . وحصل أن امرأة تزوجت على هذا النحو سبعة

(١٠٦) في نص روك لا توجد فاصلة بعد (إلاّمَ تسعون) . فإذا حذفنا هذه الفاصلة من النص الألماني تأخذ الجملة معنى مختلفاً ، وهو التالي : (أيها المراؤون لماذا تسعون إلى نصب فخ لي ؟) .

إخوة واحداً بعد الآخر ، دون أن يخلفوا نسلاً . فلمَنْ تكون المرأة إذا كان البشر يعيشون بعد الموت ؟ » .

فأجاب يسوع على هذا الاعتراض الغبي :

« صحيح ان البشر يتزوجون في هذه الحياة ، ولكن ما إن يدخل الخالدون في جماعة الأرواح المجرَّدة ، حتى يفقدوا هذه الحاجات مع أجسادهم ! » .

وسمع أحد الفريسيين إجابات يسوع الموفقة على أسئلة الآخرين ، فسأله بدوره سؤالاً (من غير سوء نية على ما يبدو)(١٠٧) : « ما هو المبدأ الأسمى للخلقية ؟ » فأجابه يسوع :

« ثمة إله ، ويجب أن تحبّه بكل قلبك ، وأن تكرّس له إرادتك ونفسك بالكلية ، وكل قواك . هذه هي الوصية الأولى » .

« والثانية ملزمة كالأولى ، وهي التالية : « أحببْ كل إنسان كنفسك » . ولا توجد وصية أسمى » .

فأعجب الفريسي بهذا الجواب ، وقال :

« لقد نطقت بالحق ، فتكريس نفسك لله ، ومحبتك قريبك كنفسك ، يفوقان كل الذبائح والبخور » .

فسُرَّ يسوع من مشاعر الرجل الطيبة ، وقال :

« لست بعيداً ، بهذه المشاعر ، عن أن تكون من مواطني ملكوت الله ، حيث لا تلتمس نعمته بالذبائح والكفارات ، أو بعبارة من أطراف الشفاه ، أو بالتخلي عن العقل » .

وكان في زاوية الهيكل صندوق تُلقى فيه التبرعات للهيكل(١٠٨) .

---

(١٠٧) روك : (بسوء نية على ما يبدو) .

(١٠٨) لوقا ٢١ : ١

فلاحظ يسوع بين الذين يضعون فيه نصيبهم ، امرأة فقيرة وضعت فلسين إلى جانب الأغنياء الذين يقدمون مبالغ كبيرة .

فقال : « إن هذه قد وضعت أكثر من الآخرين كلهم . فالجميع قد أعطوا مما يفيض عنهم ، أمّا هذه فإنها بالقليل الذي قدمته ، أعطت كل ثروتها » .

وانتهز يسوع هذه الفرصة لتحذير الشعب وأصدقائه من الفريسيين ، بسبب محاولات هؤلاء ضده(١٠٩) ، فقال :

« إن الفريسيين ومعلمي الشريعة جالسون على كرسي موسى . فراعوا الشرائع التي يأمرونكم بمراعاتها . أمّا قدوتهم وطريقة تصرفهم فلا تتبعوها ! لأنهم يتداولون شريعة موسى ولكنهم لا يحفظونها . فإنهم يتبعون في أعمالهم هدفاً وحيداً ، وهو التصنع أمام الناس بالمظهر الخارجي للاستقامة .

« تأكلون أموال الأرامل ، وتفرحون باستضافتهن لكم ، بحجة أنكم تصلّون معهن .

« أنتم تشبهون القبور المكلّسة ، ظاهرها مزيّن ، والفساد يدب سريعاً في داخلها . تتصنّعون مظهر القداسة في ظاهركم ، أمّا باطنكم فرياء وظلم » .

وأجمل يسوع سمات عديدة أيضاً ، وأنّبهم عليها واحدة بعد الأخرى ، عندما كانت الفرصة تسنح لذلك .

وفيما كانوا يتجولون في أرجاء الهيكل المختلفة ، تحادث تلاميذ يسوع عن عظمته(١١٠) . فقال لهم إن لديه حَدْساً بأن هذه العبادة العظيمة جداً ، وهذه الأبنية ذاتها ستنتهي . مما أذهل أصدقاءه ، فلمّا صاروا وحدهم فيما بعد

---

(١٠٩) متى ٢٣ .

(١١٠) متى ٢٤ .

على جبل الزيتون المطل على أبنية الهيكل الجميلة ، وعلى قسم كبير من المدينة ، سألوه :

« متى سيحصل ما حدّثتنا عنه منذ قليل ؟ وما هي العلامات التي نعرف بها اقتراب مجيء مملكة ماسيّا ؟ » .

فأجابهم يسوع :

« هذا الانتظار لماسيّا مايزال يوقع أبناء أمتي في أخطار جسيمة . وبار باطه مع أحكامهم المسبقة الأخرى وتعصبهم الأعمى ، فإنه يعني سقوطهم الكامل . وهذا الأمل الوهمي يجعلهم ألعوبة للدجالين المحتالين أو للحالمين فاقدي الرأس .

« فاحذروا أن يستولي عليكم أنتم أيضاً . سيقال غالباً : « إن ماسيّا المنتظر هنا ! » ، أو « إنه هناك ! » . وكثيرون سينتحلون اسم ماسيّا ، وينصّبون أنفسهم ، تحت هذا الاسم ، قادة للتمردات ومؤسسي شيع دينية . وكثيرون سيصنعون نبوءات ومعجزات ، حتى يخدعوا ، بقدر إمكانهم ، الصالحين أنفسهم .

« سيقال غالباً : « هناك في الصحراء سيظهر ماسيّا المنتظر ، أو أنه يمكث خفية هنا في الكهف » . فلا تدعوا مثل هذه الكلمات تجذبكم فتجرون وراءهم . إن تخمينات وشائعات مماثلة ستسمح بقيام تمردات سياسية وانشقاقات دينية . فيحصل تحزُّب ، وبروح هذا التحزب ، يحصل تباغض ويفضح واحدٌ الآخر . ويعتقد البعض أن لهم الحق في التضحية بأقدس واجبات الانسانية ، في سبيل هذا الحماس الأعمى لأسماء وكلمات .

« وبعد ذلك خراب الدولة ، وانحلال الرباطات الاجتماعية والانسانية ، ثم الوباء والمجاعة ، مما يوقع هذه البلدان الشقية بسهولة فريسة للأعداء الخارجيين . فويل للحوامل والرضّع آنذاك .

« لا تسمحوا لأنفسكم بالتحزُّب في هذه الاضطرابات . فسيصاب

الكثيرون بعدوى هذا الروح الخدّاع ، دون أن يعلموا كيف حصل ذلك . وكثيرون سيستولي عليهم هذا الاعصار ، فيبتعدون في كل خطوة عن روح الاعتدال ، ويرون أنفسهم في النهاية متورطين في الجرائم وفي خراب حزبهم ، دون أن يكون بإمكانهم التراجع .

« اهربوا ، وتجنبوا قدر استطاعتكم مسرح الفساد وفقدان الرحمة هذا ! تحرّروا من كل علاقات القربى ، ولا تؤجلوا ذلك متذرعين بتدبير هذا الأمر أو ذاك ، أو بإنقاذه . ومهما حصل ، ابقوا مخلصين بقوة لمبادئكم . عندما يهاجمكم روح التحزب ويؤلمكم ، بشّروا بالاعتدال ، وانصحوا بالمحبة والسلام ، ولا تهتموا بأيٍّ من هذه الأحزاب الدينية والسياسية .

« لا تظنوا أن تصميم الإله يتم بمثل هذه التجمعات الفوضوية ، أو في جماعات تحكم باسم شخص أو باسم إيمانه . هذا التصميم ليس وقفاً على شعب واحد ، ولا على إيمان واحد ، ولكنه يشمل الجنس البشري كله بمحبة متجردة . يمكنكم القول أن هذا التصميم قد تحقق ، عندما تصبح خدمة العقل والفضيلة هي المسلَّم بها والممارَسَة في كل أنحاء الأرض ، دون عبادة الأسماء والكلمات .

« ما يحفظكم من روح الانقسام ، ويجعلكم دائماً صامدين وشجعاناً ، هو الرؤية الثابتة لأمل الانسانية هذا ، وليس الأمل الوطني الباطل لليهود .

« فليستند هدوؤكم وشجاعتكم ، في كل هذه الانقسامات ، إلى فضيلة غير مشوهة . كونوا متيقظين حتى لا يدخل قلوبكم خلسة إحساس بالاكتفاء[١١١] ، مزيف وجبان ، إحساس يستند إلى تعلق بالصيغ الدينية ، أو إلى عبادة كلامية ومراعاة مفرطة لطقوس أية كنيسة .

« فسيكون هذا ، مثل عشر عذارى حملن مصابيحهن وخرجن لانتظار

---

(١١١) يوجد في نص روك عبارة موضوعة بين قوسين تكرر بطريقة مختلفة تماماً ، العبارة السابقة .

العريس حتى يأخذ عروسه إلى منزله (١١٢) . وكانت خمس منهن عاقلات قد تزوّدن بالزيت ، أمّا الخمس الأخريات الجاهلات فتهاملن في ذلك . وبعد انتظار طويل ، جاء العريس متأخراً في الليل ، فأردن الذهاب أمامه . وكانت اللواتي ليس لديهن زيت قد أسرعن إلى السوق لشرائه ، لأن الأخريات لم يستطعن إعارتهن منه ، فهو بالكاد يكفيهن .

« وفي أثناء غيابهن حضر العريس . فرافقته العذارى الخمس العاقلات إلى المنزل من أجل مأدبة العرس . أمّا الأخريات اللواتي اهتممن بالدعوة ، ولكنهن تهاملن في ما هو أساسي ، فأقصين عن المأدبة » .

« وكذلك أنتم ، فلا تعتقدوا أنه يكفي أن تنضموا إلى دين ما إذا نسيتم ما هو أكثر ضرورة ، أي ممارسة الفضيلة . لا تتوهموا أنه يكفي أن تسرعوا إلى جمع المبادىء عندما تكونون في ضيق ، أو عندما تقتربون من الموت . لا تفكروا في التزيّن بالمزايا الغريبة ، التي يعتقد كل منكم أنها صالحة له ، دون أن يستطيع نقلها إلى الآخرين ، فبإيمانكم بالكنيسة وحدها أو بآملكم الخدّاع في مزايا الآخرين ، لن تستمروا أمام قاضي العالم القدّوس .

« إنني أشبه حكمه بحكم الملك الذي جمع شعبه وفصل الصالحين عن الأشرار كما يفصل الراعي الكباش عن الحملان . وقال للصالحين :

« اقتربوا يا أصدقائي وابتهجوا بالسعادة التي تستحقونها . لأنني جعت فأطعمتموني ، وعطشت فسقيتموني . عندما كنت غريباً بينكم استقبلتموني ؛ عندما كنت عارياً كسوتموني ؛ عندما كنت مريضاً اعتنيتم بي ؛ وعندما سجنت زرتموني » .

« فسألوه متعجبين :

« يا سيد ، متى رأيناك جائعاً أو عطشان حتى نطعمك أو نسقيك ،

(١١٢) متى ٢٥ .

ومتى رأيناك غريباً أو مريضاً أو في السجن حتى نكسوك أو نستقبلك أو نزورك ؟ » .

« ولكن الملك أجابهم :

« كل ما فعلتموه إلى أحد أصغر إخوتي ، واخوتكم ، فهذا ما أجازيكم عليه ، كما لو أنكم فعلتموه لي أنا » .

« وقال للآخرين :

« ابتعدوا عني وتلقوا جزاء عملكم ، فعندما جعت أو عطشت لم تطعموني ولم تسقوني . وعندما كنت عارياً أو مريضاً أو في السجن ، لم تعتنوا بي » .

« فقال له هؤلاء أيضاً :

« متى رأيناك جائعاً أو عطشان أو عارياً أو مريضاً أو في السجن ، حتى يكون بإمكاننا أن نقدم لك أية خدمة ؟ » .

« فأجابهم الملك الجواب نفسه :

« كل ما لم تفعلوه لأحد الصغار ، فسأجازيكم عليه ، كما لو أنكم لم تفعلوه لي أنا » .

« وهكذا أيضاً سيلفظ قاضي العالم حكم الادانة على الذين يعبدون الإله من أطراف شفاههم ، آخذين مظاهر التقوى ، دون أن يعبدوه في صورته التي هي الانسانية » .

وكان يسوع يقيم في العادة أثناء النهار في مباني الهيكل وساحاته ، وفي الليل خارج المدينة ، على جبل الزيتون .

أمّا المجمع الكبير فلم يجرؤ على تنفيذ قراره بالقبض على يسوع ، أمام الشعب . ولهذا السبب لم يجدوا أفضل من العرض الذي قدمه لهم يهوذا ،

أحد أصدقاء يسوع الاثني عشر الحميمين ، بأن يدلّهم على مكان إقامة يسوع الليلية ، ويساعدهم في القبض عليه خفية ، مقابل مبلغ من المال .

ويبدو أن الطمع كان الهوى الأساسي ليهوذا . وهو طمع لم يدع مكاناً لأي مشاعر سامية في علاقته بيسوع ، لأنه كان الدافع الأساسي ليهوذا منذ أن صار تابعاً ليسوع ، وظن أن بإمكانه تحقيقه عندما يؤسس يسوع مملكته الماساوية . ولما بدأ يتيقن أن هدف يسوع ليس تأسيس مثل هذه المملكة ، وأدرك أن أمله سيخيب ، سعى إلى الحصول على أكبر منفعة ممكنة من صداقته ليسوع ، فخانه .

وحسب عادة اليهود ، أعدّ يسوع عشاء فصحياً في أورشليم ، وكان لحم الغنم الطعام الأمثل فيه . وهو المساء الأخير الذي أمضاه مع أصدقائه ، فكرّسه بكامله من أجل أن يترك فيهم انطباعاً عميقاً .

ففي بداية العشاء ، نهض يسوع وخلع رداءه ، وشمّر عن ساقيه ، ثم تناول قماشاً وغسل أقدام أصدقائه (عمل يقوم به الخدم في العادة)[113] . ورفض بطرس أن يغسل يسوع قدميه ، فقال له إنه سيعلم السبب للحال . وبعد انتهائه قال :

« لقد رأيتم ما فعلت . أنا ، الذي تدعونني معلماً ، غسلت أقدامكم . لقد أردت أن أعطيكم مثلاً على الطريقة التي يجب أن تتصرفوا بحسبها فيما بينكم . الأمراء يحبون السلطة[114] ، ولهذا فإنهم يدعون أنفسهم محسنين إلى الجنس البشري . فلا تكونوا مثلهم . لا يَسْعَ أيٌّ منكم إلى التسلط على الآخرين ، ولا يبتغِ أحدكم أن يتجاوز الآخرين بخفة ؛ ولكن فليكن كل منكم لطيفاً وخدوماً ، كما بين الأصدقاء ، وعندما يؤدي أية

(١١٣) يوحنا ١٣ .
(١١٤) لوقا ٢٢ : ٢٥ .

خدمة ، فلا يقدمها وكأنها صدقة أو تنازل منه للآخرين . إنكم تعرفون ذلك ، فطوبى لكم إذا فعلتموه أيضاً !

« أنا لا أقول هذا لكم جميعاً ، بل يمكنني أن أستعمل هنا ما قيل في مكان ما : « واحد من الذين يأكلون معي سيرفع قدمه عليَّ » . لأن واحداً منكم سيسلمني » .

أحزنت هذه الفكرة يسوع ، وكدّرت أصدقاءه أيضاً . وكان يوحنا قريباً منه ، فسأله بهدوء عمَّن يكون ؟ فقال له يسوع :

« إنه الذي أقدّم إليه هذه القطعة من الخبز » . ثم مال بها إلى يهوذا ، قائلاً :

« ما تريد أن تفعله ، افعله بسرعة » .

ولم يفهم أحد من الآخرين معنى هذا .

ظنوا أنه يتعلق بمهمة ما ، لأن يهوذا كان يتولّى صندوق الجماعة . وتركهم يهوذا بسرعة خشية أن يوبخه يسوع أمام الجميع (إذْ رأى أن قصده ليس خافياً على يسوع) ، أو خوفاً من أن يتزعزع تصميمه إذا لبث هناك وقتاً طويلاً .

وحينئذٍ تابع يسوع :

« إن صديقكم بأبنائي الأعزاء ، سيتمم مصيره قريباً . وسيستقبله أبو البشر في مساكن غبطته . قليلٌ من الوقت أيضاً ، وسأرفع عنكم . وعهدي لكم وصيةٌ واحدة أتركها لكم ، أن تحبوا بعضكم بعضاً مقتدين بمحبتي لكم . ولن توصفوا بأنكم أصدقائي إلّا بهذه المحبة المتبادلة .

فسأله بطرس :

« إلى أين تنوي الذهاب ؟ أتريد أن تتركنا ؟ » .

فقال يسوع : « لا تستطيع أن ترافقني في الطريق التي سأسلكها » .

فأجابه بطرس : « لماذا لا أستطيع أن أتبعك ، إنني مستعد لبذل حياتي من أجل ذلك » !

فقال يسوع : « أتريد أن تضحي بحياتك في سبيلي ؟ أنا أعلم جيداً أنك لم تمتلك القوة لفعل ذلك بعد . ويمكن أن توضع تحت التجربة قبل أن يطلع النهار الجديد » .

« لا تذهلوا لأنني سأُفصَل عنكم . احترموا الروح الذي يقيم فيكم ، وتعلموا منه معرفة مشيئة الإله . فبهذا الروح وحده يمكن اعتباركم منتسبين إلى الإله ومن سلالته . وهو وحده الذي يفتح أمامكم الطريق التي تقود إلى الألوهة والحقيقة . اصغوا إلى هذا الصوت الأصيل[١١٥] . صحيح أن أشخاصنا تختلف وتنفصل لكن جوهرنا واحد . ولسنا بعيدين واحدنا عن الآخر .

« حتى الآن كنت معلمكم ، وحضوري هو الذي وجَّه أعمالكم . إنني أغادركم ، ولكنني لا أترككم كالأيتام . إنني أذهب ، لكنني أترك لكم موجِّهاً في داخلكم . فقد أيقظت بذرة الخير التي أودعها العقل فيكم ، وذكرى تعليمي ومحبتي لكم . حافظوا على روح الحق والفضيلة هذا راسخاً فيكم ، فهو الروح الذي لا يُظهر البشر أي احترام له ، لمجرد أنهم لا يعرفونه ولا يبحثون عنه في ذواتهم .

« لقد صرتم أناساً يمكن تركهم لذواتهم ، دونما حاجة إلى وصاية . فلتدلكم خلقيتكم المتطورة على الطريق عندما لا أكون معكم . كرِّموا ذكراي ، ومحبتي لكم ، بسلوككم طريق الاستقامة ، الطريق الذي قدتكم فيه . روح الفضيلة القديس سيحفظكم من الزلل في خطواتكم ، وسيعلمكم بكمالٍ كل ما لا تحتملون معرفته الآن ، وسيذكركم بكثير من الأشياء التي لم تفهموها بعد ، بإعطائها مدلولاً .

(١١٥) وردت هذه الجملة في نص روك بعد جملة (احترموا الروح الذي يقيم فيكم) .

« إنني أذهب وأمنحكم البركة ، ليست التحية التي نلقيها دون أن ترتبط بأي مدلول ، بل تلك التي أرغب أن تكون غنية بالثمار . وحتى بالنسبة إليكم ، من الأفضل أن أترككم ، فلا يمكن أن تحصلوا على الاستقلال وتتعلموا كيف تقودون أنفسكم إلاّ بتجربتكم ونشاطكم الخاصين . يجب ألاّ يملأكم ذهابي بالحزن ، بل بالفرح ، لأنني أبدأ طريقاً سامياً في عوالم أفضل ، حيث الروح يدخل إلى موطنه ، مملكة اللامتناهي ، ويرتفع بانخطاف سريع ، وأكثر حرية ، نحو الينبوع الأول لكل خير .

« لقد صبوت إلى السعادة بتناولي هذا الطعام معكم . فتداولوا الصحون والأكواب ولنجدد هنا عهد الصداقة » .

وحينئذٍ ، وكما تنشأ عند العرب في أيامنا رباطات الصداقة السرمدية بتناول الطعام من خبزة واحدة وكأس واحدة ، قسم يسوع الخبز بينهم ، على عادة الشرقيين ، وقال :

« عندما تأكلون معاً في حلقة الأصدقاء ، تذكروا أيضاً صديقكم ومعلمكم القديم . وكما أن الفصح بالنسبة إليكم هو رمز الفطير الذي تناوله آباؤكم في مصر ، والدّم ذكرى دم الذبائح التي سُفكت ، بمناسبة الميثاق الذي به (لوقا ١١ ، ٢٤ : ٨) عقد موسى عهداً بين يهوه وشعبه ، فكذلك تذكروا في المستقبل عند رؤيتكم الخبز جسدَ صديقكم ومعلمكم المقدم ذبيحة ، وعند رؤية كأس الخمر ، اذكروا دمه المسفوك !

« احفظوني في ذاكرتكم ، أنا الذي أعطيت حياتي من أجلكم ! ولتجعلكم ذكراي وقدوتي ، أقوياء في الفضيلة . إنني أراكم حولي كما لو كنتم براعم كرمة الحقل ، التي تتغذّى منها فتحمل الثمار ، ثم تنفصل عنها فتنضج الخير بقواها الحية الخاصة بها .

« أحبوا بعضكم بعضاً ، وأحبوا كل البشر كما أحببتكم أنا . إنني أقدم حياتي من أجل خير أصدقائي العظيم ، إثباتاً لمحبتي . لا أدعوكم تلاميذ أو طلاباً ، فهؤلاء ينفذون إرادة مدرسيهم ، وغالباً دون معرفة السبب

الـذي من أجله يجب أن يتصرفـوا على هـذا النحـو . أنتم بـالغـون فكـونـوا مستقلين واستمتعوا بالحرية الكـامنة في إرادتكم الخـاصة . ستحملون ثمـاراً بقـوة فضيلتكم الخـاصـة ، إذا كـان روح المحبـة ، أي القـوة التي تحيينـا أنـا وأنتم ، هو نفسه .

عندما يضطهدونكم ويسيئـون إليكم ، تذكـروا قدوتي ، وأن مصيـري ومَصـير آلاف آخرين لم يكن أفضـل . إذا اعتنقتم الشرور والأحكـام المسبقة السائدة ، تجدون الكثير من الأصـدقاء . ولكنكم ستُبغضـون لأنكم أصدقـاء الخير . حياة الانسان المستقيم تبكيت دائم للشرير ، الذي يشعر بها فتغيظه . وعنـدما يستنفـد كل حجـة لاضطهـاد رجل الخير الـذي لا يحمـل أحكـاماً مسبقـة ، فإنـه يجعل من الأحكـام المسبقة والاضـطهاد والشـرور قضيةَ الله ، ومن اضطهاد البشر ، بسبب كرهه الخير ، خدماتٍ للألوهة .

« ولكن روح الفضيلة ، الشبيـه بشعـاع آتٍ من العـوالم الفضـلى ، سيحييكم ، ويرفعكم إلى ما فوق غايات البشر الحقيرة والفاسقة . أقول لكم ذلك مسبقاً حتى لا يفاجئكم . وكما أن ضيق المرأة التي تلد يتحول إلى فـرح عندما تضع كائناً بشرياً في العالم ، فكذلك البؤس الـذي تنتظرونـه سيتحول إلى سعادة قصوى » .

ثم رفع يسوع عينيه نحو السماء وقال :

« يا أبتِ لقد أتت ساعتي . ساعة إظهار الروح النابـع من لا تناهيـك في كل كرامته ، وساعة العودة إليك . مصير هذا الروح هـو الخلود والارتفاع فوق كل ما له بداية ونهاية ، فوق كـل ما هـو محدود . لقـد أكملت مصيري الأرضي ، في أن أعرفـك أنت يـا أبتِ ، وأن أعـرف القـرابـة بـين روحي وروحك ، وأن أتشرّف بإخلاصي لـه ، وأن أجعل البشـر أكثر نبـلاً بإيقـاظ الشعور بهذه الكرامة . محبتي لك زوّدتني بأصدقاء عرفوا أنني لم أشأ أن أفرض على البشر أموراً غريبة أو تعسفية ، ولكنني علمتهم ناموسك ، ذلك الناموس المقيم هادئاً في جميع القلوب ، والذي لا يتنكر(١١٦) له سوى البشر .

« لم يكن قصدي أن أحصل على المجد بواسطة أمور فريـدة وخارقـة ، بـل أن أعيد الاحترام المفقود لـلانسانيـة التي أضاعت اعتبـارها . موضـوع فخـري هو الخـاصية الكليّـة للكائنـات التي وُهبت العقل ، وتنـظيم الفضيلة المعطاة للجميع ! .

« أيـها الكائن المطلق ، احفظهم حتى يكـون النامـوس الأسمى الذي فيهم ، الناموس المسيطر عليهم ، هو حب الخير . وهكذا يكـونون واحـداً ، ويبقـون متحدين بـك وبي . إنني آتي إليك وأوجّـه هذه الصـلاة : فليـدخـل الاستعـداد الشجـاع الـذي يحييني إليهم أيضـاً . لقـد علمتهم وَحْيَـك ، فحفظوه ، لذلك أبغضهم العالم ، كما أبغضني أنا الذي يطيعك !

« أنا لا أطلب منك أن ترفعهم من هذا العالم . فلا يعرف أحد التقدم بطلب من هذا النوع أمام عرشك . ولكن قدّسهم بحقيقتك ، فـإنها لا تشع إلاّ بناموسـك . لقد تـركت بين أيـديهم الدعـوة العلوية التي دعـوتني إليها : تدريب البشر على الفضيلة ، إنها الدعوة التي تبعتها . فليتمموها بـدورهم ، وليقيموا أصدقاء لا يجثون أمام أي صنم ، ولا يبنون وحدتهم على كلمات أو عقائد ، بل على الفضيلة والرغبة في أن يقتربوا منك أيها القدوس ! » .

ونهضت الجماعة بعد هذه المحادثة ، وتـركت أورشليم كالمعتـاد (كان الليل قد حلّ) فعبروا ساقية قدرون في حقل يدعى الجسمانية ، بالقـرب من جبل الزيتون(١١٧) . وكان يهوذا يعرف مكان الاقامة الليلية هـذا ، لأنه كـان غالباً مع يسوع .

وقال يسوع لتلاميذه أنْ يبقوا في المكان ، أمّا هو فذهب مع ثلاثة منهم إلى مكان أكثر انفراداً حتى يستسلم لأفكاره . وهنا رجعت الطبيعة برهـةً إلى

(١١٦) نول : (يتنكر له) . روك : (يبعده) .

(١١٧) لوقا ٢٢ : ٣٩ وما يقابلها .

حقوقها . واستولت على يسوع في وحدة الليل فكرة خيانة صديقه وظلم أعدائه وقساوة المصير الذي ينتظره ، فزعزعته وجزع منها . فطلب من تلاميذه أن يبقوا إلى جانبه ويسهروا معه . وكان يذهب من مكان إلى آخر وهو قلق ، ويتكلم معهم من حين إلى آخر ، ويوقظهم عندما ينامون ، ويعتزل من حين إلى آخر ، ويصلي أحياناً :

« يا أبتِ ، إنْ أمكن فابعدْ عني كأس العذاب المرّة التي تنتظرني . ولكن فلتكنْ مشيئتك لا مشيئتي . وإذا لم يكن ممكناً أن أعفى من هذه الساعة . فإني أخضع لمشيئتك » .

وسال عرقه في نقط كبيرة .

ولمّا عاد مجدداً إلى جانب تلاميذه ، وحثّهم على السهر ، رأى أناساً قادمين ، فنادى تلاميذه :

« هيا ، انهضوا ، فإن الذي خانني يقترب » .

وحينئذٍ اقترب يهوذا ومعه مسلحون يحملون مشاعل . فاستعاد يسوع رباطة جأشه الراسخة ، وتقدم للقائهم وسألهم :

« عمَّنْ تبحثون ؟ » .

فقالوا : « عن يسوع الناصري » .

فقال : « أنا هو » .

فلم يعرفوا ماذا يفعلون ، خشية أن يكونوا قد أخطأوا . فسألهم ثانية ، وأجابهم كما في المرّة الأولى ، وأضاف : « إذا كنتم تطلبونني ، فاتركوا أصدقائي » .

وهنا اقترب يهوذا ، وأشار إلى مرافقيه بالاشارة المتفق عليها ليعرفوا يسوع ، وهي أن يقول : « السلام عليك يا معلم ! » وأن يقبّل يسوع في الوقت نفسه . فأجابه يسوع : « أبقبلة تخونني أيها الصديق ؟ » .

وحينئذٍ أمسكه الجنود . فلمّا رأى بطرس ذلك ، استلّ سيفه وراح يضرب به يمنة ويسرة ، فقطع أُذُن عبد عظيم الأحبار . فقال له يسوع أن يبقى هادئاً : « دعْ هذا ، واحترم المصير الذي هيَّأته لي الألوهة » .

وهرب أصدقاء يسوع الآخرون وتفرّقوا لمّا رأوا أن رجال العصابة التي قبضت على يسوع قد أوثقوه ثم اقتادوه ، باستثناء شاب استيقظ مذعوراً ولم يكن عليه سوى رداء ، فأراد أن يتبعه ، لكن الجنود أمسكوه ، ولم ينقذه إلاّ أن تخلّص منهم تاركاً لهم الرداء . وفيما هم سائرون قال يسوع لحرّاسه :

« لقد أتيتم إليّ بالسلاح ، حتى تمسكوني وكأنني لص . ولكنني كنت بينكم كل يوم ، أجلس مع الشعب في الهيكل ، ولم تقبضوا عليّ . ولكن نصف الليل ساعتكم والظلمة عنصركم » .

واقتيد يسوع أولاً إلى حنانيا ، عظيم الأحبار السابق ، وحمي قيافا . ثم أخذوه إلى قيافا ، وكان عظيم الأحبار في تلك السنة . وهناك كان المجمع الكبير كله بانتظار يسوع ، لأن قيافا كان قد اقنع اعضاءه أن من الواجب التضحية بانسان واحد من أجل خلاص الشعب كله .

وتبع بطرس الحراسَ من بعيد ، وما كان ليجرؤ على الدخول إلى الدار نفسها ، لولا أن يوحنا يعرف عظيم الأحبار جيداً ويدخل بحرية إلى بيته ، فتدخّل عند البوّابة كي تأذن لبطرس بالدخول . فقالت لبطرس حالما رأته :

« ألست واحداً من أتباع هذا الرجل ؟ » .

فأنكر بطرس ذلك دون تردد ، وجلس قرب النار بين الحجّاب والخدم ليستدفىء مثلهم .

واحضروا يسوع أمام عظيم الأحبار ، فسأله أسئلة عديدة تتعلق بمذهبه التعليمي وتلاميذه . فأجابه يسوع :

« لقد علّمت العالم علانية . علّمت في الهيكل والمجامع حيث يذهب

اليهود كلهم عادة . وليست لدي أية مبادىء خفية . فلماذا تسألني إذاً ؟ اسألْ الذين علّمتهم والذين سمعوني ، فيمكنهم جميعاً أن يقولوا لك ما تسأل عنه » .

وبدت هذه الاجابة وقحة في نظر أحد الحراس . فلطم يسوع وقال له :

« أهكذا تجيب عظيم الأحبار ؟ » . فقال يسوع بلطف :

« إذا كنت قد أخطأت في الاجابة ، فدُلّني على خطأي ، وإذا كنت قد أحسنت الاجابة فلماذا تضربني ؟ »(١١٨) .

ثم استدعي الكثير من الشهود ، ليؤدّوا شهادتهم ضد يسوع . ولكن الأحبار لم يستطيعوا استخدامها ، إمّا لأنها غير دقيقة ، وإمّا لأنها لا تتوافق . وأخيراً حضر بعض الأشخاص وأكدوا أنهم سمعوا يسوع يتكلم على الهيكل بوقاحة . ولكن هذه الشهادات لم تتوافق تماماً في تعابيرها .

ولم يجب يسوع عن كل هذا إلاّ بالصمت . وأخيراً فقد عظيم الأحبار صبره ، فاقترب من يسوع وقال :

« ألا تجيب بشيء على هذه الاتهامات ؟ استحلفك إذاً بالله الحيّ أن تقول لنا إذا كنت قديساً ، أو ابناً للإله ؟ » .

فأجاب يسوع : « نعم ، أنا كذلك . وهذا الرجل المحتقر الذي كرّس نفسه للألوهة والفضيلة ، سترونه يوماً مرتدياً البهاء ومرتفعاً فوق النجوم » .

فمزّق عظيم الأحبار ثيابه وصرخ :

(١١٨) حسب يوحنا ١٨ : ٢٤ يبدو أن هذا الأمر حصل في قصر حنانيا . ولكن إذا كان المجمع الكبير قد انعقد عند قيافا ، وإذا كان الاستحواب الحقيقي قد حصل هنا ، فإن المكان الذي أنكر فيه بطرس يسوع لا يكون نفسه . فلا يقال (ἀρχιερεύς) في الجمع إلاّ عند قيافا (ملاحظة لهبجل)

« لقد جدّف على الله ! فما حاجتنا إلى شهادات أخرى ؟ لقد سمعتموه يشهد على نفسه . فما رأيكم ؟ » .

فأبدوا رأيهم قائلين : « إنه يستحق الموت » .

وكان هذا الموقف بمثابة اشارة للحراس ، فراحوا يشتمون يسوع ويحقرونه ، إذْ أنه بقي بين أيديهم بعد ارفضاض المجمع الكبير لبضع ساعات قبل التئامه مجدداً في وقت مبكر من الغد .

وفي هذه الأثناء كان بطرس ما يزال جالساً قرب النار(١١٩) فعرفته امرأة أخرى من خدم عظيم الأحبار ، فقالت لمَنْ هناك :

« لا ريب أن هذا أيضاً من رفاق السجين ! » .

فنفى بطرس ذلك نفياً باتاً . لكن خادماً لعظيم الأحبار ، وهو قريب الذي جرحه بطرس قبل عدة ساعات ، قال :

« ألَمْ تكن قرب يسوع في البستان ؟ » واقتنع الاخرون بذلك لأن لهجته تدل على أنه جليلي .

وفي غمرة هذه الظروف التي تشهد كلها ضد بطرس ، نسي نفسه بسبب الارتباك ، وجعله الخوف يصرُح علناً أنه لا يفهم شيئاً مما يقولونه ، وأنه لا يعرف مطلقاً الانسان الذي يعتبرونه صديقه .

وحينئذٍ أخذ الديك يصيح معلناً أن النهار بدأ يتكشّف . واقتيد يسوع من ذلك المكان في الوقت الذي كان بطرس ينكره علناً . فالتفت يسوع نحوه ، وألقى عليه نظرة ، فدخلت إلى أعماقه ، واحس بدناءة تصرفه ، وشعر كم كان يسوع محقاً ، أثناء محادثته لهم مساءً ، في شكّه بأن الوفاء الذي تباهى به بطرس لن يصمد في الامتحان . فابتعد بسرعة وذرف دموعاً مرّة وهو نادم وخجل من نفسه .

(١١٩) مرقس ١٤ : ٦٦ وما يليها .

أمّا يهوذا الخائن ، فلمّا رأى أن الأمور أخذت مجرى بعيداً ، وأن يسوع سيُحكَم عليه بالموت ، ندم على فعلته . فأعاد المال (ثلاثين ديناراً) إلى الأحبار ، وقال :

« لقد أسأت التصرف بتسليمكم بريئاً » .

فأجابوه أن هذا كان عمله ، وأن فعلته لا تهمهم . فرمى يهوذا المال في صندوق الهيكل ثم شنق نفسه .

وتردّد الأحبار في اضافة المبلغ إلى أموال الهيكل ، لأنه ثمن دم ، فاشتروا به حقلاً ، وقرروا جعله مقبرة للغرباء .

ومضت الساعات الباقية من الليل ، فالتأم المجمع الكبير مجدداً . وحكم على يسوع بأنه يستحق الموت . ولكن لم يكن للمجمع الحق باقرار الحكم ولا بتنفيذه ، لذلك ذهبوا كلهم ومعهم يسوع إلى بيلاطس ، الحاكم الروماني لتلك المقاطعة ، حتى يسلموه يسوع ، فيتجنبون بذلك انفجار أيّ عصيان شعبي إذا بقي يسوع بين أيديهم[١٢٠] .

ولم يدخلوا القصر ، حتى لا يتنجسوا ، لأن ذلك اليوم كان من أيام العيد . فخرج بيلاطس إلى الرواق وسألهم :

« بأية جريمة تتهمون هذا الرجل ، حتى تطلبوا ادانته ؟ » .

فأجاب الأحبار : « لو لم يكن مجرماً لما اسلمناه إليك » .

فأجاب بيلاطس :

« إذاً إدَّعوا عليه أنتم ، وحاكموه بحسب شرائعكم » .

فأجابوا : « لسنا مخوّلين أن نقرّر أحكاماً بالموت » .

(١٢٠) وضع نول هذه الفقرة قبل الفقرتين السابقتين . ويبدو لي أن مكانها هو حيث وضعها روك ، أي في مكانها الحالي .

فلمّا سمع بيلاطس أن الأمر يتعلق بجريمة يمكن أن تؤدي إلى حكم بالموت ، لم يعد باستطاعته رفض محاكمة يسوع ، فاستعرض تهم المجمع ضده . وكان المجمع اليهودي يعلم جيداً أنه لن يتمكن من أخذ حكم من بيلاطس باعدام يسوع ، إذا اتهموه بأنه قد صرّح أنه ابن الإله ، وهو أمر يعدّه اليهود تجديفاً على الإله ، ويعتبره المجمع جريمة تستحق الموت ، فاتهموا يسوع بأنه يضلّل الشعب ، ويجعله غير مبالٍ بدستور الدولة ، وهو ما يظهر من تحريضه على عدم دفع الجزية للامبراطور . واتهموه أيضاً بالادعاء أنه ملك .

وعاد بيلاطس إلى القصر بعد أن سمع هذه الاتهامات ، فدعى يسوع وسأله :

« أتدَّعي حقاً أنك ملك اليهود ؟ » .

فسأله يسوع بدوره :

« هل ساورتك الفكرة بأنني أدّعي مثل هذا الأمر من ذاتك ، أو أنك تسألني عنه لأن آخرين يشكونني به ؟ » .

فأجابه بيلاطس :

« وهل أنا يهودي ، حتى أنتظر من نفسي ملكاً على بلادكم ؟ إن شعبك والأحبار هم الذين يتهمونك . فماذا فعلت حتى دفعتهم إلى ذلك ؟ » .

فأجاب يسوع :

« إنهم يتهمونني بانتحال مملكة . ولكن هذه المملكة ليس لها المدلول الذي يُلصَق في العادة بهذه الفكرة . ولو كانت كذلك لكان لي رعايا وأتباع يحاربون من أجلي حتى لا أقع في أيدي اليهود » .

فأجاب بيلاطس :

« إذاً فأنت تدّعي أنك ملك ، لأنك تتكلم على مملكة » .

فأجاب يسوع :

« إذا أردت أن تسميها كذلك ، فليكنْ . لقد آمنتُ أنني جئت إلى العالم بمهمة تعليم الحقيقة ، والاتيان لها بأنصار . ومَنْ يحب الحقيقة يستمع لصوتي » .

فظهر بيلاطس بمظهر انسان هذا العالم الذي يحكم بأفق ضيق على الأشياء الجدية تماماً ، فقال وهو يبتسم : « وما هي الحقيقة ؟ » .

لا شك أن بيلاطس قد اعتبر يسوع حالماً يكرِّس نفسه من أجل كلمة أو فكرة مجرَّدة ، وهي أمور غير مهمة بالنسبة إلى فكر بيلاطس ، فاعتبر أن الشأن كله مسألة تهم الدين اليهودي وحده ، ولا تتسبب بانتهاك القوانين المدنية ، ولا تشكل خطراً على أسن الدولة . فترك يسوع وخرج قائلاً لليهود أنه لم يتبيّن أية جريمة في هذا الانسان .

فتابع هؤلاء اتهاماتهم قائلين أن يسوع يثير بتعليمه المتاعب في كل البلاد من الجليل حتى أورشليم .

ولفت انتباه بيلاطس قولهم إن الجليل هو المكان الذي بدأ فيه يسوع تعليمه ، فاستعلم عمّا إذا كان يسوع جليلياً . فلمّا تأكد له ذلك ، بدا سعيداً بالتخلص سن هذا العمل المزعج ، لأن يسوع بصفته جليلياً يتبع السلطة القضائية لهيرودوس أمير الجليل . فأرسله إليه ، وكان في أورشليم بمناسبة العيد .

وسُرَّ هيرودوس كثيراً لمرأى يسوع ، فقد كان يتمنى منذ زمن بعيد أن يراه ، لما يسمعه عنه . وكان يأمل أن يراه وهو ينجز أموراً خارقة .

فسأله مسائل كثيرة . وقام الأحبار ومرافقوهم يكررون اتهاماتهم أمامه . فلم يجب يسوع بشيء على كل ذلك . وبقي هادئاً أيضاً عندما

أوسعه هيرودوس وجلساؤه سخرية ، ولما ألبسوه أخيراً ثوباً يرمز إلى رتبة الامارة .

ولم يعرف هيرودوس ماذا يفعل به ، فقد بدا له أن يسوع موضوعٌ للسخرية أكثر من كونه مذنباً يجب أن يُعاقَب ، فأعاده إلى بيلاطس . وكان لهذه الالتفاتة من بيلاطس ، باحترام حق هيرودوس في السلطة القضائية على يسوع ، بصفته جليلياً ، تأثير على إعادة الصداقة بينهما ، وكانت قد انقطعت قبلاً .

ووجد بيلاطس نفسه مجدداً في حيرة . فجمع كبار الأحبار وأعضاء المجمع وأعلمهم أنهم قد اتهموا هذا الرجل أمامه بالتحريض على الشغب ، وأنه وهيرودوس لم يجدا فيه أي شيء يدل على استحقاقه عقوبة الموت ، ولذلك لا يمكنه أن يفعل به أكثر من أن يجلده ثم يطلقه حراً .

ولم يرضِ اليهود بهذه النتيجة ، وأصرّوا على اتخاذ قرار باعدامه . أمّا بيلاطس الذي أُعجب بصمت يسوع أثناء هذه المشادات كلها ، فلم يرض لنفسه أن يُستخدم أداةً لتعصب اليهود الديني ، بأن يضحي لهم بيسوع ، فوجد مخرجاً آخر ، وخاصة أن امرأته كانت قد أرسلت إليه رسولاً يطلب منه الاهتمام بيسوع . إذْ كانت العادة أن تطلق السلطة الرومانية في عيد الفصح سراح أحد السجناء اليهود . وكان ثمة يهودي آخر في السجن يُدعَى باراباس ، اتهمه اليهود باللصوصية والقتل .

وظن بيلاطس أن اليهود لن يهملوا ممارسة هذه العادة ، وأنهم سيطلبون الحرية ليسوع دون ذلك المجرم . فخيّرهم بين الاثنين ، أي بين باراباس وملك اليهود ، كما سمّى يسوع بسخرية .

فحرّض الأحبارُ الشعب الحاضر على طلب الافراج عن باراباس والموت ليسوع . ولمّا أعاد بيلاطس سؤاله عمّن قرروا أن يفرج عنه ، صرخوا : « باراباس ! » .

فصاح بيلاطس مستاءً : « وماذا أفعل إذاً بيسوع ؟ » .

فصرخوا : « اصلبْه » .

فسألهم بيلاطس مجدداً : « وما هو الشر الذي فعله ؟ » .

فصاحوا بقوة : « اصلبْه ، اصلبْه ! » .

وحينئذٍ أمر بيلاطس بجلد يسوع ، وضفر الجنود اكليلاً من الشوك ، ووضعوه على رأسه ، وألبسوه رداء من الأرجوان ، ووضعوا في يده قصبة بمثابة الصولجان[121] ، وصاحوا وهم يضربونه : « السلام عليك يا ملك اليهود ! » .

وظن بيلاطس أن هيجانهم قد سكن حينئذٍ ، فقال لهم :

« اكرر لكم أنني لا أجد فيه أي ذنب » .

ثم أخرجه وهو مرتدٍ ذلك اللباس وقال : « انظروا إليه ، واملأوا أعينكم من هذا المنظر ! » .

لكن المنظر لم يلينّ قلوبهم . وطلبوا موته بضجة كبيرة .

فصاح بيلاطس وهو أكثر انزعاجاً : « خذوه إذاً واصلبوه أنتم ، فانني لم أجده مذنباً » .

فأجاب اليهود : « إنه يستحق الموت حسب شرائعنا ، لأنه يدَّعي أنه ابن للإله » .

وتصور بيلاطس أن الأمر يتعلق بابنٍ لله حسب التصور الروماني ، فساورته الشكوك أكثر فأكثر ، وسأل يسوع :

« من أين أنت بالحقيقة ؟ » .

(١٢١) (. . . وألبسوه رداء من الأرجوان ، ووضعوا في يده قصبة بمثابة الصولجان . . .) لا توجد في نص روك .

ولكن يسوع لم يجبه .

فقال بيلاطس : « أفلا تجيبني أنا أيضاً ؟ أتعرف أن حياتك وموتك وقف عليّ وحدي ؟ » .

فأجاب يسوع : « هذا صحيح إذا كان حياتي أو موتي موافقين لتصميم العناية الإلهية . ولكن هذا لا يقلل من خطأ الذين أسلموني » .

وأخذ بيلاطس يميل أكثر فأكثر إلى جانب يسوع ، وعزم على اطلاقه . فلمّا رأى اليهود ذلك ، لعبوا دور الرعايا المخلصين الذين لا يهتمون إلاّ بمصلحة القيصر . إنه دور قاس بالنسبة إليهم ، ولكنه يسهل لهم الوصول إلى هدفهم . فصاحوا :

« إنْ أخليت سبيله ، فلست صديقاً لقيصر . فمَنْ يدّعي المُلك يكون خارجاً على ملكنا » .

حينئذٍ باشر بيلاطس المحاكمة رسمياً ، فأدنى يسوع وقال :

« هوذا ملككم ! أأصلب ملككم ؟ » .

فقالوا : « اصلبْه ، فنحن لا نعرف ملكاً سوى قيصر ! » .

فلما رأى بيلاطس أن الصخب واللغط أخذا يتزايدان ، خشي حصول متاعب ، وربما ثورة يستطيع اليهود اعطاءها مظهر التحرك للدفاع عن شرف القيصر ، وهو أمر خطير جداً بالنسبة إلى بيلاطس ، ولمّا رأى أن عناد اليهود لا يقهر ، أخذ وعاء ماء بارد وغسل يديه أمام الشعب ، وقال :

« إنني بريء من دم هذا البارّ ، وأنتم تتحملون مسؤوليته ! » .

فصرخ اليهود : « أجل ، فنحن وأولادنا نكفّر عن موته ! » .

وهكذا انتصر اليهود : فأطلق سراح باراباس وحكم على يسوع بالصلب (طريقة الرومانيين في الموت ، ولكنه مشين كالشنق في أيامنا) .

وبقي يسوع عرضةً لسخرية الجنود وفظاظتهم حتى اللحظة التي اقتادوه فيها إلى مكان التعذيب . وكانت العادة أن يحمل المحكوم خشبته . ولكن يسوع أُعفي من ذلك . وأُعطيت الخشبة لرجل يدعى سمعان كان موجوداً هناك ، فحملها .

وكان حشد الجماهير كبيراً . فلم يجرؤ أصدقاء يسوع على الاقتراب منه ، بل تبعوه وحضروا التنفيذ من بعيد وهم متفرقون . وكان بالقرب منه نسوة عرفنه فأخذن يبكين متنحبات على مصيره . وفيما يسوع سائر التفت إليهن وخاطبهن هكذا :

« يا بنات أورشليم لا تبكين عليَّ ، بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن . فستأتي أيام يُقال فيها طوبى للنساء العواقر ، وللاثداء التي لم تُرضع ، وللنساء اللواتي لم يلدن ! أترين ما حصل لي ! احكمن إذاً إلى أي مدى يمكن أن يصل شعب تحييه مثل هذه الروح ! » .

وصلب يسوع مع جانيين اثنين .

ووضع صليبه في الوسط . وفيما هم يعلّقونه عليه (باثبات يديه بالمسامير ورجليه بالحبال وحدها على الأرجح)(١٢٢) صرخ : « يا أبت ، اغفرْ لهم ، لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون ! » .

واقتسم الجنود ملابسه فيما بينهم كما جرت العادة . ووضع بيلاطس لوحة على صليبه كتب عليها بالعبرية واليونانية واللاتينية : « هذا هو ملك اليهود » . فأغاظ ذلك الأحبارَ ، وقالوا إن بيلاطس يجب أن يكتب أن يسوع

(١٢٢) انظر (Paulus, Memorabilien, 1793, p. 36 - 64) مسألة تسمير أقدام المصلوبين (ملاحظة هيجل) .
ولكن نص روك نقل ما بين القوسين بطريقة مختلفة : (باثبات يديه بالمسامير وقدميه بالحبال) . وملاحظة هيجل تختلف في هذا النص أيضاً : (ليس هذا سوى احتمال ؛ انظر Paulus, Memorabilien 2) .

قد ادّعى ذلك . ولكن بيلاطس الناقم عليهم بسبب هذه المسألة كلها ، فرح لمّا لاحظ أنهم يشعرون أن لوحته قد أهانتهم ؛ فلمّا طلبوا منه تغييرها أجابهم : « ما كتبته سيبقى » .

وفي ذلك الوقت كان يسوع معرضاً ، بالاضافة إلى الالام الجسدية ، إلى السخرية الشامتة من الرعاع اليهود ، وهم من أفراد الطبقة العليا ومن عامة الشعب ، وكذلك إلى دعابات الجنود الرومانيين الفظة . ولم يمنع المصير المشترك أحد الشقيين المصلوبين مع يسوع من مزج سخرياته بالشتائم الساخرة للجماهير .

ولكن اللص الآخر ، ورغم جرائمه ، لم يفقد نهائياً شعوره الانساني وضميره ، فعنّف الأول على كونه قاسياً وفظاً ، حتى في هذه الظروف ، نحو انسان يعاني مثله حالة تعذيب واحدة .

وأضاف : « إن مصيرنا عادل . لأننا نلنا ما تستحقه أعمالنا . أمّا هذا فيتحمل المصير نفسه وهو بريء ! » . ثم قال ليسوع : « اذكرني متى أتيت في ملكوتك » .

فأجاب يسوع : « سنكون معاً في القريب ، ونسكن في مقام المغبوطين » .

وعلى قدم الصليب وقفت أم يسوع مع بعض صديقاتها بحزن عميق . ولم يكن هناك من أصدقاء يسوع الحميمين سوى يوحنا الذي وقف مع النسوة ليشاركهن ألمهنّ . وشاهدهم يسوع معاً ، فقال لأمه : « هذا ابنك بدلاً مني » . وقال ليوحنا : « اعتبرها أمك » . وهكذا استقبلها يوحنا في منزله واعتنى بها ، حسب رغبة صديقه المقبل على الموت .

وبعد بضع ساعات عاشها يسوع متألماً على الصليب ، صرخ : « إلهي ، إلهي ، لماذا تركتني ؟ » ثم صرخ أيضاً أنه عطشان ، وبعد أن

أعطي قليلاً من الخلّ الذي مُدَّ إليه بواسطة اسفنجة مبللة[١٢٣] ، قال أيضاً : « لقد تمّ » . وأخيراً صرخ بصوت مرتفع : « أبتِ ، في يديك استودع روحي » . ثم حنى رأسه وأسلم الروح .

واعجب القائد الروماني المشرف على التنفيذ بالهدوء والجلال اللذين مات بهما يسوع . أمّا اصدقاؤه فشاهدوا نهاية صديقهم الحميم عن بعد .

ولّما كان المصلوبون لا يموتون في العادة إلّا شيئاً فشيئاً ، ويبقون في بعض الأحيان عدة أيام احياءً معلقين على الخشبة ، وكان الغد يوم العيد الكبير عند اليهود ، طلب هؤلاء من بيلاطس أن تُكسَر سوق المصلوبين وأن ينزلهم من هناك حتى لا تبقى الأجساد على الخشبة إلى الغد . ففعلوا ذلك بالمجرمين ، لأنهما كانا لا يزالان حيين ، ووجدوا أن ذلك غير ضروري ليسوع ، فطعنوه بحربة في جنبه حيث خرج ماء (دم أبيض) ممزوجاً بالدم .

وكان يوسف الرامي ، أحد اعضاء مجمع أورشليم ، ولا يعرف عنه سوى أنه صديق ليسوع ، قد طلب إلى بيلاطس أن يعهد إليه بجثمان يسوع . فأجابه بيلاطس إلى طلبه . فذهب يوسف مع نيقوديموس ، وهو صديق آخر ليسوع ، فأَحْدَرَ الميت وحنطه بالمرّ والعود ، ولفّه بالكفن (نسيج كتان) ووضعه في ضريح عائلته المنحوت في الصخر ، والكائن في بستانه القريب من مكان الصلب . وهكذا استطاع بسهولة انجاز كل هذه التجهيزات قبل ابتداء العيد : أي اليوم الذي لا يُسمَح فيه بدفن الموتى .

---

(١٢٣) في الهامش : «λέγων ἄφετε» ـ دعوه ولا تعذبوه حتى لا يموت للحال ، فتحرم من متعة رؤية ايليا وهو يأتي لمساعدته . مرقس ١٥ : ٣٦ (ملاحظة لهيجل) .

المحتويات

صدر في المكتبة الهيجلية

١ ـ محاضرات في فلسفة التاريخ (المجلد الأول) (العقل في التاريخ)	هيجل
٢ ـ المنهج الجدلي عند هيجل	د. إمام عبد الفتاح إمام
٣ ـ المنطق وفلسفة الطبيعة	ولتر ستيس
٤ ـ فلسفة الروح	ولتر ستيس
٥ ـ أصول فلسفة الحق (المجلد الأول)	هيجل
٦ ـ موسوعة العلوم الفلسفية (المجلد الأول)	هيجل
٧ ـ محاضرات في فلسفة التاريخ (المجلد الثاني) (العالم الشرقي)	هيجل
٨ ـ جدل الفكر	د. إمام عبد الفتاح إمام
٩ ـ جدل الطبيعة	د. إمام عبد الفتاح إمام
١٠ ـ جدل الإنسان	د. إمام عبد الفتاح إمام
١١ ـ حياة يسوع	هيجل
١٢ ـ نظرية الوجود عند هيجل	هربرت ماركيوز